

الفصل العاشر

السنوات الأخيرة في إسبارطة

ما بعد سجن "أفيون" إلى سنة ١٩٥٠

بعد أن قضى الأستاذ النورسي وطلابه مدة محكوميتهم في سجن أفيون أُفرج عنهم في ١٩٤٩/٩/٢٠ ولكن لم يسمح للأستاذ بمغادرة أفيون إلا في ١٩٤٩/١٢/٢ فتوجه إلى "أميرداغ" برفقة شرطي. للإقامة الإجبارية هناك، فأمضي فيها سنتين. وفي هذه الفترة أرسل رسائل تهنئة إلى طلابه، وأرسل مجموعة كاملة من رسائل النور المصححة إلى رئيس الشؤون الدينية بوساطة تلميذه مصطفى صونغور.^(١)

رسالة شخصية إلى رئيس الشؤون الدينية

باسمه سبحانه

﴿وَإِنْ مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾

«السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

حضرة السيد أحمد حمدي المحترم!

سأبين لكم حادثة روحية جرت لي:

قبل مدة مديدة كانت فكرة اتباع الرخصة الشرعية -بناء على الضرورة- وترك العزيمة لا ينسجم مع فكري، مثلما سلكتموه أنتم وعلماء معكم. فكنت أغضب وأحتدّ عليكم وعليهم. وأقول: لم يتركوا العزيمة متبعين الرخصة؟. لذا ما كنت أبعث إليكم رسائل النور مباشرة.

ولكن قبل حوالي أربع سنوات ورد إلى قلبي أسف شديد مشحون بالانتقاد. وفجأة خطر على القلب ما يأتي:

(1) T.Hayat, İsparta hayatı.

إن هؤلاء الأفاضل أصدقاؤك وزملاؤك في المدرسة الشرعية، وفي مقدمتهم السيد أحمد حمدي، قد هوتوا الخطر الداهم -على الإسلام- إلى الرُبع. وذلك بصرفهم قسماً من الوظيفة العلمية -حسب المستطاع- من أمام التخريبات الرهيبة العنيفة، حفاظاً على المقدسات، متبعين الدستور الشرعي "أهون الشرين" وسيكون عملهم هذا -إن شاء الله- كفارة لبعض نقائصهم وتقصيراتهم التي اضطروا إليها.

فبدأتُ من ذلك الوقت أنظر إليكم وإلى أمثالكم نظرة أخوة حقيقية -كالسابق- فأنتم إخوتي في المدرسة الشرعية وزملائي في الدراسة.

وحيث إنني كنت أترقب وفاتي من وراء تسميمي هذا،^(١) عزمت على تقديم مجموعة كاملة إليكم قبل ثلاث سنوات آملاً أن تكونوا صاحب الحقيقي لرسائل النور وحاميها بدلاً عني. غير أن المجموعة ليست مصححة ولا كاملة، إلا أنني قمت بشيء من التصحيح لمجموعة كاملة أكثر أجزائها استنسخها -قبل خمس عشرة سنة- ثلاثة طلاب لرسائل النور لهم شأنهم..

فما كنت أعطى هذه المجموعة النفيسة إلى غيرك، حيث إن كتابتها من قبل هؤلاء الثلاثة الأعضاء جعلت قيمتها تعادل عشر مجموعات كاملة. ومقابل هذا فإن ثمنها المعنوي ثلاثة أمور:

الأول: استنساخ ثلاثين نسخة تقريباً من كل منها بالرونيو بالحروف القديمة إن أمكن، وإلا فبالحروف الجديدة، وتوزيعها على شعب رئاسة الشؤون الدينية في البلاد. بشرط أن يكون أحد إخواننا الخواص مُعيناً على إجراء التصحيح وقائماً بأمره. لأن نشر أمثال هذه المؤلفات من مهمة رئاسة الشؤون الدينية.

الثاني: لما كانت رسائل النور بضاعة المدرسة الشرعية وملكها، وأنتم أساس المدرسة الشرعية ورؤساؤها وطلابها، فالرسائل إذن ملككم الحقيقي. فانشروا ما ترتأون منها وأجلوا الأخرى!

(١) وهذه المرة هي الخامسة عشرة من التسميم، وبعد أن شافاه الله منه قام بترجمة الخطبة الشامية من العربية إلى اللغة التركية مع إضافات عليها. (ب) ١٤١٢/٣.

الثالث: ليطبع المصحف الشريف الذي يبين التوافقات في لفظ الجلالة، بالصورة الفوطوغرافية لتشاهد لمعة الإعجاز في التوافقات. ويرجى عدم طبع التعاريف التركية حول التوافقات الموجودة في البداية مع المصحف الشريف، بل الأفضل طبعها في كراس مستقل باللغة التركية أو ترجمه ترجمة أمينة إلى العربية»^(١).

رسالة صونغور من أنقرة إلى الأستاذ

باسمه سبحانه

﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾

«حضرة الفاضل أستاذي العزيز المشفق المبارك المحبوب!

لقد سلّمت رسالتكم الغراء إلى حضرة السيد أحمد حمدي رئيس ديوان الشؤون الدينية، مع مجموعة من الرسائل. فوضعها بفرح بالغ في مكتبته الخاصة وقال: "سأعطي -إن شاء الله- هذه المجموعة إلى إخواني الخاصين لقراءتها، وسنحاول -على هذه الصورة- طبعها تدريجياً" وقد قال أيضاً - يا سيدي ويا أستاذي المحبوب: إنه سيعمل حسب ما ورد في رسالتكم الكريمة، إلا أنه لا يمكن نشر هذه المجموعات دفعة واحدة في الوقت الحاضر، إلا أنني سأجعل إخواني الخواص يقرؤونها ونشرها حسب اهتمام الناس بها والطلب عليها، وبإذن الله سأسعى لنشرها على أفضل ما يكون».

صونغور^(٢)

(١) الملاحق، ملحق أميرداغ ٢.

(٢) الملاحق، ملحق أميرداغ ٢.

سنة ١٩٥٠^(١)

برقية إلى رئيس الجمهورية

جلال بايار / رئيس الجمهورية

«نهئتكم وندعو الله تعالى أن يوفقكم لخدمة الإسلام والوطن والأمة.

عن طلاب النور / سعيد النورسي»^(٢)

وأجاب رئيس الجمهورية بالبرقية الآتية:

بديع الزمان سعيد النورسي - أمير داغ

أسعدتنا تهانيكم القلبية كثيراً أشكركم شكراً جزيلاً

جلال بايار^(٣)

بشارة إعادة الأذان الشرعي

«مع غلبة رسائل النور وظهورها ظهوراً معنوياً كاملاً يحاول ملحدو الماسونيين وزنادقة الشيوعيين أن يستهولوا صغائر الأمور، فيُحُولُوا دون حرية نشر رسائل النور.

(١) أراد حزب الشعب الجمهوري الحاكم - باقتراب الانتخابات العامة - استمالة الشعب بجانبه بالسماح لفتح مدارس تحفيظ القرآن وأداء تكبيرات العيد باللغة العربية وفتح كلية الإلهيات في أنقرة. إلا أن الشعب لم ينخدع بهم لكثرة مظالمهم وتعديهم الفظيع على الدين فأدلى بصوته في الانتخابات للحزب الديمقراطي المعارض. فتولى الديمقراطيون الحكم في ١٦/٥/١٩٥٠ بأغلبية ساحقة في الانتخابات ٣٩٦ نائباً مقابل ٦٨ نائباً من حزب الشعب الجمهوري، وقامت الحكومة الجديدة بإجراءات لصالح الإسلام تذكر منها:

١- رفع الحظر عن أداء الأذان باللغة العربية. وأصبح الأذان يرفع اعتباراً من ١٦/٦/١٩٥٠ بالوجه الشرعي
٢- إصدار قانون العفو العام في ١٤/٧/١٩٥٠.

٣- رفع الحظر عن إذاعة القرآن الكريم والبرامج الدينية في الراديو في ٥/٨/١٩٥٠.

٤- إدخال دروس الدين رسمياً في المدارس الابتدائية في ٢١/١٠/١٩٥٠.

٥- غلق معاهد القرى التي كانت تدرس الإلحاد في ١٠/٨/١٩٥٢.

٦- إدخال دروس الدين رسمياً في المدارس المتوسطة في ١٣/٩/١٩٥٦ (ب) ٣/٣/١٤٠٣.

(٢) الملاحظ، ملحق أمير داغ ٢. وقد أملى الأستاذ بديع الزمان هذه البرقية على طالبه زبير كوندوزآلب ثم التفت إليه قائلاً: أتدري لم أرسل بريقة التهئة هذه؟ وسكت الطالب، فوضح الأستاذ:

سيقول الجمهوريون للديمقراطيين: صحيح أن سعيداً ليس معنا فهو ليس معكم كذلك، بل له هدف آخر يستهدفه، ويخدعونهم بهذا الكلام ويدفعونهم إلى استعمال قوة الدولة التي في أيديهم ضد المتدينين وضد طلاب النور. ولكن ما إن يتسلم الديمقراطيون بريقة التهئة حتى يقولوا لهم: إن سعيداً صديق لنا. وعندها لا تستغل قوة الدولة على غير وجهها الصائب. (ش) ٣٨٢.

(٣) (ش) ٣٨٢.

حتى إنهم سببوا تأجيل محكمتنا -لهذه المرة أيضاً- لخمسة وثلاثين يوماً، وأحدثوا ضجة ومشادة مع محامينا، ليمنعوا إعادة مصحفنا الشريف. إلا أن العناية الإلهية جعلت جميع خططهم عقيمة باثرة حيث إن رسائل النور في إسطنبول وأنقرة تستقرئ نفسها للشباب بشوق كامل وترشدهم إلى الصواب. حتى أدت الغلبة المعنوية هذه إلى إرسال البرقيات من قبل مئات الشباب المثقفين تعبيراً عن تهانئهم وشكرانهم إلى رئيس الوزراء الذي سعى لإعادة الأذان المحمدي "على الوجه الشرعي"^(١).

سنة ١٩٥١

برقية من الفاتيكان

الفاتيكان ٢٢ شباط ١٩٥١

مقام البابوية الرفيع

السكرتير الخاص

رئاسة القلم الخاص رقم ٢٣٢٢٤٧

سيدي! تلقينا كتابكم المخطوط الجميل "ذوالفقار" بوساطة وكالة مقام البابوية باسطنبول، وتم تقديمه إلى حضرة البابا الذي رجانا أن نبليكم بالغ سروره من هذه الالتفاتة الكريمة منكم، ودعواته من الله عز وجل أن يشملكم بلطفه وفضله. ونحن ننتهز هذه الفرصة لنبلغكم احتراماتنا.

التوقيع

رئاسة سكرتارية الفاتيكان.^(٢)

إلى السيد رئيس الجمهورية وأعضاء مجلس الوزراء - أنقرة

«نحن طلاب النور أصبحنا هدفاً لما لا مثيل له من ضروب التعذيب والإهانة طوال عشرين سنة، فصبرنا تجاه ذلك حتى أتى المولى الكريم بكم لمعاونتنا.

(١) الملاحق، ملحق أميرداغ ٢.

(٢) الملاحق، ملحق أميرداغ ٢.

ونقدم محكمة التمييز ومحكمة دنيزلي شاهدين على عدم وجود أي سبب كان لتلك الإهانات منذ خمس وعشرين سنة حيث لم تتمكن ثلاث محاكم من وجدان السبب، لا حقيقة ولا قانوناً بعد تدقيقاتهم في مائة وثلاثين كتاباً وألوف المكاتيب. وعلى الرغم من أنني تركت السياسة منذ ثلاثين سنة، فإنني أقدم تهاني إلى رئيس الجمهورية وإلى مجلس الوزراء الذين تولوا رئاسة الأحرار، وأقرن التهنة بالإفصاح عن "حقيقة" وهي الآتية:

إن الذين يغيرون علينا ويعذبوننا في المحاكم قالوا: "ربما يستغل طلاب النور الدين في سبيل أغراض سياسية!" ونحن قلنا ونقول لأولئك الظالمين في دفاعاتنا ونسند قولنا بألوف الحجج:

إننا لا نجعل الدين أداة للسياسة، فليس لنا غاية إلاّ رضاه تعالى، ولن نجعل الدين أداة لا للسياسة ولا للسلطة ولا للعالمية برمتها. هذا هو مسلكتنا. وقد تحقق لدى أعدائنا، أنهم على الرغم من تدقيقاتهم المغرضة طوال ثلاث سنوات في ثلاثة أكياس مليئة بالكتب والمكاتيب لا يستطيعون إدانتنا، بل لا يجدون مبرراً للأحكام الاعتبارية التي حكموا علينا بها. وحيث إنهم لم يجدوا أي شيء علينا فسخت محكمة التمييز ذلك الحكم. فنحن لا نجعل الدين أداة للسياسة بل نتخذ السياسة آلة للدين وفي مصلحة ووثام معه عندما نجد أنفسنا مضطرين اضطراراً قاطعاً إلى أن ننظر إلى السياسة تجاه الذين يجعلون السياسة المستبدة أداة للإلحاد، إضراراً للبلاد والعباد، فعملنا يحقق رابطة أخوية لثلاثمائة وخمسين مليوناً مع إخوانهم في هذه البلاد.

حاصل الكلام: إننا سعيًا لأجل إسعاد هذه الأمة والبلاد بجعل السياسة أداة للدين وفي وثام معه تجاه أولئك الذين جعلوا السياسة المستبدة آلة للإلحاد وعذبونا...^(١)

نصيحة للإخوة الديمقراطيين

«إن أمضى أسلحة عبيد العهد الماضي من الماسونيين الذين هدروا الدين والإيمان والأرواح في البلاد أثناء حكم الدكتاتورية والرئاسة الفردية وهم في أنفاسهم الأخيرة، الموجهة ضد الديمقراطيين، هي السعي في إظهارهم وكأنهم أقل ديناً مما كانوا عليه. ويتلبس نفر منهم بأزياء التدين فيشيعون بأن الديمقراطيين لن يفوا بوعودهم للشعب في

(١) الملاحق، ملحق أميرداغ ٢.

إطلاق الحريات الدينية. ويتهم نفر آخر منهم الديمقراطيين بحماية "الرجعية الدينية" لصددهم عن معاضدة حرية الدين وتوجههم إلى تخريب الدين والمؤسسات الدينية وفرض الشدة على أهل الدين.

إن تصرف الحزب الديمقراطي بحزم ضد الشيوعيين منذ استلامه للسلطة، وإطلاق حرية الأذان المحمدي بصورته الشرعية وكسبه محبة الشعب لهذا السبب وحصوله على قوة تعدل قوته عشرين ضعفاً، أقلق حزب الشعب الجمهوري غاية القلق.

نحن نثق بأن الديمقراطيين لن يقعوا في الفخ لأنهم يدركون أن هذا الوضع الذي وقع فيه أولئك كان بسبب سياسة العهد الماضي الظالمة ضد أهل الدين وضد جماعة النور، أهل القرآن.

إن الشعار المعلن للنظام السابق معلوم للجميع. وينبغي للديمقراطيين، ما داموا يريدون البقاء، أن يتخذوا سياسة مناقضة لذلك الشعار مناقضة تامة: وهي التشدد ضد الشيوعية من جهة، وحماية الدين وأهل الدين من جهة أخرى. إنهم ملزمون بسلوك هذا السبيل في وضوح وجراحة. وأن أي بادرة ضعف كان أو بادرة فتور بهذا الشأن، يوقعهم في شراك حزب الشعب الجمهوري.

نحن، طلاب النور لا نشتغل في السياسة قطعاً. وأملنا الوحيد ضمان حرية الدين في الوطن، ورفع الظلم والتضييق الواقع منذ ربع قرن على الدين وأهله وجماعة النور، أهل القرآن. وننصح الإخوة الديمقراطيين ألاّ ينخدعوا بحيل النظام السابق الشيطانية ومصائدهم، وألاّ يخوضوا في الضلالة التي خاضوها، وألاّ يستخفوا بروح الشعب وإرادته مثلما استخفوا. وليمضوا بعزم في الطريق السليم الذي سلكوه إزاء الشيوعية والدين».

عن طلاب النور

صادق وصونغور وضياء^(١)

أول زيارة حرة إلى أسكي شهر

بعد أن قضى الأستاذ في "أميرداغ" سنتين سافر إلى أسكي شهر في ٢٩/١١/١٩٥١ واستقر في فندق "يلدز" ما يقارب الشهر ونصف الشهر وبعث إلى طلابه الرسالة الآتية:

(1) T.Hayat, Emirdağ Hayatı.

الحقيقة هي التي تتكلم

«لقد أثبتت رسائل النور أنه قد تنبثق عدالة من بين طيات الظلم، أي قد يتعرض أحدهم إلى الظلم وإلى الحيف فتصيبه نكبة، وقد يُحكم عليه بالحبس ويُرمى به في غياهب السجون.. لا شك أن مثل هذا الحكم ظلم واضح، ولكنه قد يكون سبباً لتجلي العدالة وظهورها، ذلك لأن القدر الإلهي قد يستخدم الظالم لتوجيه العقوبة إلى شخص استحقها بسبب آخر، وهذا نوع من أنواع تجلي العدالة الإلهية.

وأنا الآن أفكر.. لِمَ أساق من محكمة إلى محكمة، ومن ولاية إلى ولاية، ومن مدينة إلى أخرى طوال ثمانيا وعشرين عاماً؟ وما التهمة الموجهة إليّ من قبل من ارتضوا لأنفسهم معاملتي بكل هذا التعذيب الظالم؟ أليست هي تهمة استغلال الدين في سبيل السياسة؟ ولكن لِمَ لا يستطيعون إثبات ذلك؟.. ذلك لأنه لا يوجد أي شيء من هذا القبيل في الحقيقة وفي الواقع. فهذه محكمة تقضي الشهور والسنوات في محاولة الحصول على أي دليل يدينني فلا تستطيع، وإذا بمحكمة أخرى تسوقني للتحقيق وللمحاكمة تحت التهمة نفسها وتقضي بدورها مدة في هذه المحاولة وفي الضغط عليّ وتعرضني لأنواع شتى من التعذيب، وعندما لا تحصل على أية نتيجة تتركني، وإذا بمحكمة ثالثة تمسك بخناقِي هذه المرة.. وهكذا أنتقل من مصيبة إلى مصيبة، ومن نكبة إلى أخرى. لقد انقضت ثمان وعشرون سنة من عمري على هذا المنوال، وأخيراً أيقنوا عدم وجود أي نصيب من الصحة للتهمة المسندة إليّ؛

وإني أتساءل: سواء أكان ذلك قصداً أو وهماً فإنني أعلم علم اليقين عدم وجود أية علاقة لي بهذه التهمة، كما أن جميع أهل الإنصاف يعرفون بأنني لست بالرجل الذي يستغل الدين لغاية سياسية، بل إن الذين وجَّهوا إليّ هذه التهمة يعرفون ذلك في قرارة نفوسهم. إذن فما السبب في إصرارهم على اقتراف هذا الظلم في حقي؟ ولماذا بقيت معرضاً على الدوام لهذا الظلم والتعذيب مع كوني بريئاً ودون أي ذنب؟ ولماذا لم أستطع التخلص من هذه المصائب؟ ألم تكن هذه الأحوال مخالفة للعدالة الإلهية؟

لقد بحثت عن أجوبة لهذه الأسئلة خلال ربع قرن من الزمن فلم أوفق في ذلك. ولكنني الآن عرفت السبب الحقيقي في قيامهم بظلمي وتعذبي. وأنا أقول وكلّي أسف: إن ذنبي هو اتخاذي خدماتي القرآنية وسيلة للترقي المعنوي والكمالات الروحية. والآن بدأت أفهم هذا وأحسه تماماً، وأنا أشكر الله تعالى آلاف المرات لأنه طوال سنوات طويلة وضعت موانع معنوية وقوية جداً خارج إرادتي لكي لا أتخذ خدماتي الإيمانية وسيلة للترقيات المادية والمعنوية أو من أجل الخلاص من العذاب ومن جهنم أو حتى من أجل سعادتي الأبدية أو من أجل أية غاية أخرى.

لقد أذهلتنني هذه الأحاسيس الداخلية العميقة والخواطر الإلهامية، فبينما نرى أن كل فرد له الحق في اكتساب المقامات التي يعشقها، وفي نيل السعادة الأخروية عن طريق الأعمال الصالحة، هذا زيادة على أنه لا ينتج أي ضرر لأي أحد، ومع هذا فقد رأيت أنني أُمْنَع -روحياً وقلبياً- من هذه الأحوال ومن سلوك هذا الطريق. وجعل نصب عيني أن عليّ ألا أهتم -بجانب الفوز بالرضى الإلهي- إلا بواجب خدمة الإيمان. ذلك لأن الزمن الحالي يحتاج إلى إعطاء نوع من الدرس القرآني الذي لا يكون في خدمة أي غرض آخر للذين لم يتوصلوا بفطرة العبودية الموجودة في أنفسهم إلى الحقائق الإيمانية التي هي فوق كل شيء، وإلى الذين هم بحاجة إلى فهم هذه الحقائق وذلك بأسلوب مؤثر، بحيث يستطيع إنقاذ الإيمان في مثل دنيا الاضطراب هذه التي اختلطت فيها الأمور، ويستطيع إقناع كل أحد حتى المعاندين وبعث الطمأنينة في نفوسهم، وبذلك يستطيع قصم ظهر الكفر المطلق والضلال المتمرد والمعاندين وبذلك يهب القناعة الكاملة للجميع.

ولا تحصل مثل هذه القناعة في الظروف الحالية إلا عندما يكون الدين بعيداً عن كونه وسيلة لأية غاية شخصية أو دنيوية أو أخروية، مادية كانت أو معنوية. وإذا لم يتحقق هذا فإن أي شخص كان مهماً بلغ من المراتب المعنوية يقف عاجزاً تجاه التيار الرهيب -المتولد من المنظمات والجمعيات السرية- ضد الدين؛ لأنه لا يستطيع إزالة كل الشكوك والشبهات. ذلك لأن النفس الأمارة للشخص المعاندين الذي يرغب في الدخول إلى حلقة الإيمان ستقول له: "إن ذلك الشخص زين لنا هذا بدعائه وبمستواه الرفيع واستطاع بهذا إقناعنا".. يقول هذا ويبقى الشك يساوره.

فلله الشكر ألوف ألوف المرات ففي طيّ تهمة القيام باستغلال الدين في السياسة قام القدر الإلهي -الذي هو العدل المحض- طوال ثمان وعشرين سنة بمنعني من جعل الدين -دون علمي ودون إرادة مني- آلة لأي غرض شخصي، وذلك باستخدام الأيدي الظالمة للبشر في توجيه الصفعات لي وفي تذكيري وتنبهي.. هذه الصفعات التي كانت عدلاً محضاً وتحذرنى قائلة: إياك إياك! أن تجعل الحقائق الإيمانية آلة لشخصك، وذلك لكي يعلم المحتاجون إلى الحقائق أن الحقائق وحدها هي التي تتكلم، ولكي لا تبقى هناك أوهام النفس ودسائس الشيطان، بل لتخرس وتصمت.

هذا هو سر تأثير رسائل النور في إشعال الحماس في القلوب وفي الأرواح كالأعواج في البحار الواسعة. وهذا هو سر تأثيرها في القلوب وفي الأرواح وليس شيئاً غيره. ومع أن هناك آلاف من العلماء سجلوا الحقائق التي تتحدث عنها رسائل النور في مئات الآلاف من الكتب، والتي هي أكثر بلاغة من رسائل النور، لم تستطع إيقاف الكفر البواح. فإذا كانت رسائل النور قد وفّقت إلى حدّ ما في مقارعة الكفر البواح تحت هذه الظروف القاسية، فقد كان هذا هو سر هذا النجاح.. ففي هذا الموضوع لا وجود لـ"سعيد"، ولا وجود لقابلية سعيد وقدرته، فالحقيقة هي التي تتحدث عن نفسها.. نعم.. الحقيقة الإيمانية هي التي تتحدث.

وما دامت رسائل النور تؤثر في القلوب العطشى إلى الإيمان وإلى نور الحقائق، إذن لا يُفدَى بسعيدٍ واحد بل بألف "سعيد وسعيد". وليكن كل ما قاسيته في غضون ثمان وعشرين سنة من الأذى والمصائب حلالاً زللاً. أما الذين ظلموني وجروني من مدينة إلى أخرى، والذين أرادوا أن يوصموني بمختلف التهم والإهانات، وأفردوا لي أماكن في الزنانات فقد عفوت عنهم ذلك وتنازلت عن حقوقي تجاههم.

وأقول للقدر العادل: إنني كنت مستحقاً لصفعاتك العادلة لأنني سلكت مثل الآخرين طريقاً -هي بذاتها مشروعة ولا ضرر منها- فكرت فيها بشخصي، ولو لم أضح بمشاعري في الفيوضات المادية والمعنوية، لفقدت هذه القوة المعنوية الكبيرة في أثناء تأدية خدماتي من أجل الحفاظ على الإيمان. لقد ضحيت بكل شيء وتحملت كل أذى، وبذلك انتشرت الحقائق الإيمانية في كل مكان، ونشأ مئات الآلاف -بل ربما الملايين- من طلاب مدرسة

النور ونهلوا من معارفها. وهؤلاء هم الذين سيستمرون في هذه الطريق في خدمة الإيمان، ولن يحدوا عن طريقي في التضيحة بكل شيء مادياً كان أو معنوياً، إذ سيكون سعيهم لله سبحانه وتعالى وحده دون غيره.

إن الكثيرين من طلابي قد ابتلوا بشتى أنواع البلاء والمصائب، وتعرضوا لصنوف العذاب والمتاعب، واجتازوا امتحانات عسيرة بفضل الله. إنني أطلب منهم أن يتجاوزوا -مثلي- عمن اقترف تلك المظالم وهضم الحقوق، لأن أولئك قد ارتكبوا تلك الأمور عن جهل منهم والذين آذونا وعذبونا، ساعدوا على نشر الحقائق الإيمانية دون أن يدركوا تجليات أسرار القدر الإلهي.. ووظيفتنا تجاه هؤلاء هي التمني لهم بالهداية.

أوصى طلابي ألا يحمل أحد منهم شيئاً من روح الانتقام في قلبه ولو بمقدار ذرة، وأن يسعوا سعياً جاداً لنشر رسائل النور وليرتبطوا بها ارتباطاً وثيقاً. إنني مريض جداً.. لا طاقة لي لا في الكتابة ولا في الحديث.. وقد يكون هذا آخر أقوالي.. فعلى طلاب رسائل النور لمدرسة الزهراء ألا ينسوا وصيتي هذه^(١).

سنة ١٩٥٢ (٢)

قضية "مرشد الشباب"^(٣)

بعد المكوث في مدينة "أسكي شهر" توجه الأستاذ بديع الزمان إلى مدينة "إسبارطة" في أواخر سنة ١٩٥١ حيث بقي فيها سبعين يوماً، التقى طلابه مستعيداً ذكرى سنوات نفيه التي قضاه فيها.

في تلك الأيام قام بعض طلاب النور الجامعيين في إسطنبول بطبع رسالة "مرشد الشباب"

(١) الملاحق، ملحق أميرداغ ٢.

(٢) من هنا إلى نهاية الفصل نقول مترجمة من T. Hayat İsparta hayatı.

(٣) رغم التبدل الذي حدث في السلطة، فالعقلية الحاكمة على أغلب المسؤولين هي نفسها عقلية حزب الشعب الجمهوري. ولهذا فتح المدعى العام في كل من أميرداغ وإسطنبول وصامسون، دعاوى على الأستاذ النورسي، وفُتِش بيته عدة مرات، واستدعى هو وضيوفه وزواره إلى المخفر، وأُشيعت عنه إشاعات مغرضة كثيرة؛ كل ذلك لإلقاء الظل على العهد الديمقراطي أنه ليس بجانب المتدينين. وبالمقابل كتب الأستاذ وطلابه عرائض احتجاج إلى رئيس الجمهورية ورئيس الوزراء لبيان موقفهم، وجرت مقابلات مع عدد من النواب ورئيس رئاسة الشؤون الدينية بهذا الشأن.

بالحروف الجديدة^(١) مما تسبّب في إقامة دعوى ضده بحجة مخالفته لـ"المادة ١٦٣" في الدستور التركي؛ وهي المادة التي تحظر أي نشاط يستهدف إقامة الدولة على أسس دينية. وقد استُدعي الأستاذ بديع الزمان إلى إسطنبول للمثول أمام محكمة الجزاء الكبرى وحدد يوم ١٩٥٢/١/٢٢م للنظر في هذه الدعوى، فتوجّه بديع الزمان إلى إسطنبول في ١٩٥٢/١/١٥. كانت هذه أول زيارة لمدينة إسطنبول بعد غيبة دامت سبعة وعشرين عاماً. ولهذا تقاطر عليه الزوار في فندق "آق شهر" ثم في فندق "رشادية".

انعقدت المحكمة في يوم ١٩٥٢/١/٢٢. وجاء الأستاذ يحف به المئات من طلبة النور. كانت قاعة المحكمة قد امتلأت بجموع من الشعب الذين حضروا لمتابعة هذه القضية ولرؤية هذا العالم الجليل الذي شغل تركيا كل هذه السنين. كما امتلأت ممرات المحكمة، وامتد الازدحام إلى الشارع.

جلس الأستاذ في المكان المخصص للمتهمين. وبدأ الادعاء العام بقراءة تقرير الخبراء المكلفين بتدقيق رسالة "مرشد الشباب" ثم تمّ استجواب الأستاذ. كان تقرير الخبراء يقول باختصار ما يأتي:

"إن المؤلف يحاول في رسالته هذه نشر الفكرة الدينية، وإنه يحاول رسم طريق معين للشباب بوساطة هذه الأفكار، وإنه يدعو النساء إلى الاحتشام وعدم السير والتجول بملابس تكشف عن أجسامهن لأن ذلك يصادم الفطرة، ويخالف الإسلام والآداب القرآنية. كما أن المؤلف يدعو إلى تدريس الدين وهو بذلك يؤيد إقامة نظام الدولة على أسس دينية.. الخ".

وبعد الانتهاء من قراءة صيغة الاتهام قام الأستاذ بديع الزمان للردّ على ما ورد أعلاه.

دفاع الأستاذ النورسي

«أرجو التفضل بالاستماع لعرضي عرضاً موجزاً لحياتي التي مضت في مظالم وأحداث جسام، (وقد سمحت المحكمة للأستاذ بالدفاع بطلاقة، فدافع عن نفسه دفاعاً شاملاً وواسعاً):

(١) تضم هذه الرسالة مستلّات من كليات رسائل النور، تهم حياة الشباب الدنيوية والأخروية. ولأول مرة يُنشر كتاب إسلامي بهذا النطاق الواسع أي بعد سبع وعشرين سنة

أيها الحكام المحترمون! تعرّضت منذ ثمان وعشرين سنة إلى إهانات وتعذيب ومراقبة وسجن بغير عد ولا حساب. وجميع الافتراءات والتهم تستند في الأساس إلى بضع نقاط:

١- أول التهم هو أنني عدو السلطة القائمة. ومن المعلوم أن لكل حكومة معارضين. وما لم يمس الإنسان الأمن والنظام، لا يكون مسؤولاً عما يتبناه من فكر أو منهج يرضاه في قلبه ووجدانه. وهذا مبدأ متعارف عليه في الحقوق. فالمحاكم البريطانية لم تحاكم حتى الآن أكثر من مائة مليون مسلم يعيشون تحت ظل الحكومة الإنكليزية المتجبرة والمتمزّمة في دينها منذ مائة سنة رغماً عن عدم قبولهم ورفضهم سلطة الكفر للإنكليز.

وعندنا، لم تتعرض الحكومات الإسلامية كلها في أي وقت كان بقوانينها لليهود والنصارى الذين عاشوا في دول الإسلام منذ القدم رغماً عن مخالفتهم ومعارضتهم ومضادتهم لدين الدولة والنظام السامي الذي يستظلون به.

وقد تحاكم عمر رضي الله عنه في زمن خلافته مع نصراني من عامة الناس في محكمة واحدة. فإن عدم مؤاخذه مخالفة هذا النصراني لنظام حكومة الإسلام ودينها وقوانينها، تُظهر بجلاء أن مؤسسة العدل لا تنجرف مع تيار ولا تنحاز إلى تعصب. هذه عمدة أساس في حرية الدين والضمير، فهي نافذة في مؤسسات العدل كافة في الشرق والغرب والعالم كله، عدا الشيوعية منها.

وأنا حين أعترض -ثقة بهذه العمدة الأساس لحرية الدين والضمير واستناداً إلى مئات الآيات القرآنية- على الجزء الفاسد من المدنية وعلى الاستبداد المطلق المستتر بستار الحرية وعلى الظلم الشديد الواقع على الدين وأهله تحت قناع العلمانية، هل أكون خارجاً عن نطاق القوانين؟ أم مدافعاً عن الدستور بحق وصدق؟ إن الاعتراض على هضم الحقوق والظلم والاستخفاف بالقوانين لا يعدّ جريمة في أي حكومة من الحكومات، بل المعارضة هذه مشروعة وعنصر صادق في موازنة العدل.

٢- ثاني التهم الموجهة إليّ من السلطة السابقة التي هان ظلمي وعذابي عليها، هو الإخلال بالأمن والنظام. لقد عوقبت عبر ثمان وعشرين سنة بهذا الوهم المختلق وبهذه

التهمة الملققة. وساقوني من محكمة إلى محكمة ومن تغريب إلى تغريب، ومن سجن إلى سجن. منعوني حتى من لقاء الناس فعزلوني عن العالم، وسَمَموني وأهانوني بأنواع الإهانات.

نحن -طلبة النور البالغ عددها خمسمائة ألف- حَقَّاز معنويون متطوعون للأمن والنظام في الوطن، فاتهامنا بهذه الفرية من أكبر الخطايا والآثام. لقد لقينا إهانات ظالمة، لكن لم ننسق مع عواطفنا، ولم نفتر لحظة عن العمل في بناء الأمن والنظام في القلوب وخدمة الإيمان والقرآن وإنقاذ الساقطين في الفوضى نتيجة الغفلة في المستنقع الموحل.

أيها الحكام المحترمون! أقول جازماً: إن هذا ليس ادِّعاءً بغير دليل. إن ست محافظات هي ساحة ظلمنا وتغريبنا وست محاكم فيها، لم تجد حادثة واحدة للإخلال بالأمن والنظام ضدنا بعد بحث دقيق وطويل. وتصرُّفنا هذا دليل على أن طلبة مدرسة العرفان، مدرسة النور، يعملون في القلوب، حيث يقيمون حارس الأمن والنظام في العقول والقلوب. إن دروسنا الإيمانية ضد الفوضى والاضطرابات والتخريب، وضد الماسونية والشيوعية. اسألوا دوائر الأمن للدولة كلها هل هناك حادثة واحدة تخالف الأمن والنظام صدرت من طالب واحد من طلاب مدرسة العرفان والنور، البالغ عددهم خمسمائة ألف؟ كلا! ومن البدهي الجواب بالنفي، لأن في قلوبهم جميعاً أقوى حراس الأمن والسكون، وهو حارس الإيمان.

في مقالة لي بعنوان: "الحقيقة تتكلم..." المنشورة في مجلة "سبيل الرشاد" العدد ١١٦ بينت هذه الحقائق مفصلاً. فالذي ضحى في سبيل دينه بدينه جميعاً، وبحياته متى استوجب، وحتى بأخوته، وسيرته تشهد على ذلك، واعتزل السياسة منذ خمسة وثلاثين عاماً، ولم تجد المحاكم العديدة دليلاً واحداً ضده مع دقة التحري، وتجاوز سنه الثمانين وبلغ باب القبر، ولم يملك شيئاً قط من متاع الدنيا ولم يول اهتماماً به.. هل يقال له: إنه يتخذ الدين وسيلة للسياسة.. ومن قال بهذا فقد جاوز الحق والإنصاف من الأرض إلى السماء ومن السماء إلى الأرض.

نحن تلاميذ مدرسة العرفان، مدرسة النور، تعلمنا درساً عن الحقيقة من القرآن الحكيم هو: أن العدل القرآني يمنع حرق دار أو سفينة فيها عشرة جناة وبراء واحد حتى لا يلحق ضرر بحق البريء. فكيف تُحرق دار أو سفينة فيها عشرة أبرياء ومجرم واحد بسبب هذا

المجرم؟ أليس حرقها ظلماً عظيماً وخيانة عظمى؟ العدل الإلهي والحقيقة القرآنية يمنعان بشدة إلقاء حياة تسعين بريئاً إلى التهلكة أو الإضرار بهم بسبب عشرة بالمائة من الجناة. فاتباعاً لهذا الدرس القرآني، نلتزم ديناً بالمحافظة على الأمن والنظام.

فأعداؤنا المستترون في السلطة السابقة الذين اتهمونا بمثل هذه التهم، قد اتخذوا السياسة وسيلة للإلحاد وسعوا لدق إسفين العقائد الفاسدة في أرض الوطن من حيث يدرون أولاً يدرون. فظاهر عياناً أن المخّلين بالنظام أو السكون ومخربي الأمن والأمان مادياً ومعنوياً لسنا نحن، بل هم أولئك. المسلم الحقيقي والمؤمن الصادق لا يكون مؤيداً للفوضى والتخريب. والدين يمنع الفتنة والفوضى بشدة، لأن الفوضى لا تعترف بحق من الحقوق، وتقلب سجية الإنسانية وآثار الحضارة إلى سجية الحيوان المتوحش، وفي القرآن الحكيم إشارة لطيفة إلى أن ذلك هو جيش يأجوج ومأجوج في آخر الزمان.

فيا أيها الحكام المحترمون! هكذا أذاقوني وطلابي الأذى والظلم ثمانياً وعشرين سنة، ولم يذخر المدّعون العامون في المحاكم وسعاً في إهانتنا وتحقيرنا. وتحملنا نحن ذلك وسرنا في طريق خدمة الإيمان والقرآن. وعفونا عن مظالم رجال السلطة السابقة وأذاهم، لأنهم نالوا ما يستحقونه، وتمتعنا نحن بحقنا وحریتنا. ونشكر فضل الله علينا بأن منّ علينا بالكلام في حضور حكام عادلين ومؤمنين... هذا من فضل ربي».

وبذلك انتهت الجلسة الأولى للمحكمة على أن تعاود انعقادها في ١٩ شباط. وعند انعقاد الجلسة الثانية في موعدها المحدد، كان هناك ازدحام اشد إلى درجة تعذر على الشرطة السيطرة على الناس المتدافعين.

وفي هذا الجو من الزحام والتدافع لم يكن من الممكن إجراء المحكمة، لذلك فقد توجه رئيس المحكمة إلى الموجودين قائلاً لهم: إذا كنتم تحبون الشيخ، فافسحوا لنا المجال لكي نستطيع الاستمرار في إجراءات المحاكمة.

وعلى إثر هذا الطلب فقد بدأ الجمهور بالتراجع، وهكذا بدأت المحاكمة، إذ استدعت صاحب المطبعة الذي قام بالطبع كما استمعت إلى شهادة الشرطة. ثم قام بديع الزمان وقدم اعتراضه على تقرير الخبراء. وحينما أدركته صلاة العصر طلب السماح له بتأدية الصلاة، وأجيب طلبه، إذ أعلن رئيس المحكمة انتهاء الجلسة الثانية.

وفي الجلسة الثالثة التي انعقدت في ١٩٥٢/٣/٥ اتخذت الحكومة احتياطات أمن مشددة، فوزعت مئات من رجال الشرطة أمام المحكمة وداخلها حيث استطاعت بذلك تنظيم السيطرة على الآلاف من محبي وطلاب الأستاذ بديع الزمان. في البداية استمعت المحكمة إلى شهادة الطالب الجامعي الذي قام بطبع هذه الرسالة. ثم ألقى محامو بديع الزمان بدفاعاتهم وردوا على التهم الموجهة إليه.

مقتطفات من دفاع المحامي "مهري حلاو"

إن مؤلف رسائل النور، أكثر المؤلفين والمحررين تواضعاً. وهو أعدى أعداء الشهرة والكبر، معرض عن متاع الدنيا، فلا مال ولا شهرة ولا سلطة. هذه كلها لا تبلغ طرف ثوبه، ولن تبلغ... هذا الرجل إن كان يحيا بخمسين غراماً من الخبز وبطبق من الحساء يومياً، فهو يعيش من أجل خدمة القرآن والإيمان. وما عداها لا أهمية عنده لشيء. فهل يوافق الحق والعدل والإنصاف والعلم والفكر الإنساني والفكر القانوني والمنطق والعقل أن يُتهم بتهمة المدح والثناء على مؤلفه وإدخال ذلك في نطاق الجرم لـ"المادة ١٦٣"؟ أدع هذا لتقدير المحكمة السامي. وأتطرق إلى موضوع معارضة الحكومة بإيجاز:

يقف أمامكم منتظراً قراركم العادل بكمال الصفاء والإخلاص، رجل فريد في عصره، لم يتدن في عمره مطلقاً لكلام خلاف الصدق. وقد قال جهراً في أول جلسة للمحكمة: إنه مرتاح من الحكومة القائمة ويدعو الله لها بالتوفيق، وإن الحكومة التي أنتقدتها ولم يرض عنها هي الحكومة السابقة. فلقد سعى مع جميع الشعب لتأسيس الحرية والديمقراطية واستبشر خيراً بحصول النتائج الحاصلة في هذا الشأن لترسيخ النظام واستقراره في القلوب. فمثلاً يسعى رجال السياسة لإقرار النظام وضمان حق الأمة وحريتها في الساحة السياسية فإن مؤلف رسائل النور يسعى لإقرارها أيضاً في الساحة المعنوية، فالمقاصد مشتركة.

إن مؤلف رسائل النور التي هي مدرسة العرفان وكذلك تلاميذها، حراس متطوعون ومعنويون للأمن والنظام والسكون، وساعون لدحر الفوضى والتخريب في الساحة المعنوية في القلوب والعقول. هؤلاء يبذلون الجهد لمنافع الوطن والشعب لنيل رضا الله فقط بكمال الإخلاص، لا يأملون عرضاً ولا غرضاً ولا بدلاً. وهذا ليس جرماً ولا جنائية،

بل خدمة للوطن والشعب، ويلزم أن يكافئوا عليه لا أن يؤاخذوا. ومن حقنا أن نطلب براءته، والقرار للمحكمة السامية.

دفاع المحامي "سني الدين باشاق"

بعده، دافع الوكيل الآخر المحامي سني الدين باشاق دفاعاً موجزاً عن المؤلف..
المسألة تبينت وبزغت الحقيقة كالشمس، وعلمت المحكمة بكل شيء وليس عندي جديد أضيفه. ولكن أود أن أقول شيئاً عن المنطق الذي جلب رجالاً فضلاء ومحترمين وعاملين للشعب والوطن بالتضحية في سبيل الله وبلا عرض ولا عوض، ووضعهم في قفص الاتهام، لكن هذا المقام ليس مقام ذلك بل يلزم أن يصنف فيه كتاب، لأن مقاومة هذا المنطق واجب على الجميع. وإنني مطمئن إلى الوجدان السامي للمحكمة السامية إلى درجة تجعلني في غنى عن الدفاع. وأشرف بطلب البراءة لموكلتي.

دفاع المحامي "عبد الرحمن شرف لاج"

ثم بدأ بالدفاع المحامي المؤمن القدير والمعروف عبد الرحمن شرف لاج الذي تولى الدفاع عن الأستاذ متطوعاً مثل زملائه الأفاضل، قال تقديمياً:
ظهر جلياً أن لا مناسبة ولا علاقة بين هذا الإنسان المبارك الذي جاوز عمره الثمانين المائل في حضوركم متهماً وبين الجريمة. وآمل أن محكماتكم الموقرة قد اقتنعت تماماً بذلك، وأنها ستصدر قرار براءته. لكنني أعدّ ترك الدفاع عن هذا البريء -الذي تعهدت بالمدافعة عنه- إخلالاً بتعهدي وإن كان احتمال صدور قرار ضدنا أقل من نسبة واحد في الألف.

وينبغي الأخذ بنظر الاعتبار ووجهة نظر محكمة التمييز العليا وقناعتها. ولا أريد أن أجد نقصاً من حيث الأصول بسبب عدم ذكره. لذلك أرجو أن تأذن المحكمة السامية بدفاعي.

- تفضل عبد الرحمن بك، لنسمع دفاعكم الأخير.

- إن "مرشد الشباب" مجموعة من أوامر القرآن العظيم وتفسيره، وتضم نصائح وأوامر من دين الإسلام. وبناء على المادة (٧٠) من الدستور فإن براءة الذات وحرية الوجدان والفكر والكلام والنشر حق طبيعي لكل مواطن تركي. وحسب المادة ٧٥ منه

لا يؤاخذ إنسان بسبب دينه أو مذهبه. لذلك، التعقيبُ الجزائي ضد موكلي حجبٌ لحرية الدين والنشر التي منحها له الدستور.

إذا فرضنا المحال برفض الحجج القانونية الموضحة فيما سبق، وعُمل بـ"المادة ١٦٣" المخالفة للديمقراطية من قانون الجزاء التركي ضد موكلي، فنوضح تحليل التهمة الموجهة ضده كما يأتي:

مسلم، مسلم عجوز اشتعل رأسه شيباً، مسلم بيض رأسه وشعره وعمره طوال حياته بالنور، مسلم طاهر ونظيف، رأسه وشعره وعمره مغسول بنور من الله، مسلم عظيم نذر حياته التي هي نعمة من المولى من أجل صلاح الشعب التركي وسعادته الحقيقية، وعزم على السير في هذا النهج حتى ساعة تسليم روحه إلى الله مالك الملك، واستنفد بدنه الذي هو بناء سبحاني في سبيل الله وحده. يقوم هذا المسلم -في الوقت الذي نقول فيه إن الديمقراطية سارية الآن- فينادي ولا يقول إلا "الله" و"الرسول" ويحذر الشباب. وما إن ينطق بذلك، حتى يمسك المدعي العام الذي رفع القضية بتلابيبه. ويقول له: "تعال هنا... ارتكبتَ جرماً!"

وجثمت على الآفاق ظلمات سوداء...

لكن انظروا إلى هذا المسلم الأصيل النجيب. كم هو ساكن ومطمئن؟ لأنه منهمك بالوحدة لا بالكثرة، لا يأبه بظلمة الليل ولا بألوان النهار. ينظر إلى الصفاء من خلال بلاء الزنزانة. ويجد الوفاء في مائدة الجفاء، فهو عارف بحقيقة الأشياء. قلب الكثافة إلى اللطافة. غاض الدم في عروقه، فامتألت بفيض الحق والنور وسرى النور فيها بدلاً عن الدم. ويمسك المدعي العام بذراعي هذا المسلم ويجره إلى السجن. لماذا؟ ما السبب؟ ما فعل هذا الشيخ العجوز؟ ما ذنب هذا المسلم الهرم؟ أتدرون ماذا فعل؟ انظروا إلى ما فعل في نظر المدعي المشتكي:

نشر كتاباً باسم "مرشد الشباب"!

أ- خالف العلمانية. هل يجوز أن يكون "الله" و"الدين" و"الإيمان" مخالفاً للعلمانية؟ نعم، يجوز... وماذا بعد؟

ب- دعا إلى ربط أسس أنظمة الدولة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والقانونية بمبادئ الدين. كيف فعل ذلك، ولماذا، وما القصد؟

ج- القصد تأمين وتأسيس نفوذ شخصي.

حسناً.. هل يوجد قصد جلب المنافع السياسية؟.. لا، العارفون بالحال يعلمون أن هذا القصد معدوم. ولم يقدر المدعي العام أن يدّعيه. حسناً، ما دام قصد المنافع السياسية معدوماً، فماذا ينتظر هذا العجوز من هذه الدنيا، بذاته وجسده وبدنه، حتى يطلب تأمين نفوذ شخصي؟

يقول المدعي العام: لا أدري، ولا يهمني أن أدري كذلك، والخبراء يقولون بهذا أيضاً!

حسناً. كيف فعل هذا المسلم كل ذلك؟

- استخدم الدين والأحاسيس الدينية والمقدسات الدينية آلة ووسيلة!

ما المقدسات الدينية؟ دين الإسلام، الأحاسيس الإسلامية، غرس الخشية من كلمة "الله" في القلوب، "القرآن"، "التفسير". إذن، المدعي العام يعرف هذه الأمور ويؤمن أنها مقدسات دينية.

فهل العلم بها، والإيمان بها، ثم التحدث عنها، استغلال لها بجعلها آلة ووسيلة لشيء آخر؟ نعم، حسب رأي المدعي العام المشتكي! في هذه الحال، المدعي العام أيضاً يستغل هذه المقدسات الدينية آلة ووسيلة. بل يجعلها آلة ووسيلة في قانون سياسي، وفي الحكم على مسلم. ألا يقع إذن تحت طائلة "المادة ١٦٣"؟

المدعي العام يقول: لا، فأنا لا أقوم بالدعاية إلى ذلك. أما هو فقد قام بالدعاية والتلقين.

حسناً فماذا قال؟

قال: "في عصرنا هذا، لدى تصدى ضلالة الزندقة للإسلام وحربها معه فإن أرباب فرقة من الفرق المغيرة على الإسلام والتي تسير وفق مخطط النفس الأمارة بالسوء، وسلمت قيادها وإمرتها إلى الشيطان، هي طائفة من النساء الكاسيات العاريات اللاتي يكشفن عن

سيقانهم ويجعلونها سلاحاً قاسياً جارحاً ينزل بطعناته على أهل الإيمان! فيغلقن بذلك باب النكاح ويفتحن أبواب السفاح، إذ يأسرن بغتة نفوس الكثيرين ويجرحنهم جروحاً غائرة في قلوبهم وأرواحهم بارتكابهم الكبائر، بل ربما يصرعن قسماً من تلك القلوب ويقضين عليها.

وإنه لعقاب عادل لهن، أن تصبح تلك السيقان المدججة بسلاح الفتنة الجارح حطب جهنم وتُحرق في نارها أول ما يحرق، لما كن يكشفنها لبضع سنوات أمام من يحرم عليهن".

حسناً، هل هذا كذب؟ هل ينكر مجموعات البغايا المشجعات للزنا والمانعات للزواج؟ ألا تحارب الدولة وغيرها البغاء العلني والخفي؟ ألا تطارد شرطة الأخلاق البغيات وتكافحهن بقانون الجزاء ونظام محاربة البغاء ليل نهار.

يقول المدعي العام المشتكي: هذا صحيح... صحيح. هو شأننا، وليس شأن يتدخل فيه "الله"!

ليقل المدعي العام ما يشاء! لكن القانون والشرطة والمدعي العام يقبض على فاعل الجريمة ومدبرها بعد وقوع الجريمة. يعني بعد انتهاء الفعل وضياح العرض وموت القتيل. ولا يمكن بالقانون اتخاذ وسيلة لمنع وقوع الجريمة، لكن بالدين يمكن ذلك: خشية الله. الدين يعلمنا أن خشية الله تقطع سبيل كل الرذائل. الإسلام يأمرنا بذلك. يأمرنا باتخاذ التدابير مسبقاً، كيف؟ بالنصيحة، بالتحذير، بمعرفة الله! بغرس خشية الله وحب الله، والخوف من نار جهنم، والعذاب الخالد، والتوق إلى السعادة الخالدة، في قلب الإنسان.. بالعلم والفهم والحب والخشية حتى يهرب من الرذيلة وينجو بنفسه ويريح المجتمع والمدعي العام والدولة والحكومة والشعب. كيف نعمل ذلك؟ بالكلام والكتابة والقراءة. حسناً، يقول المدعي العام عندها إنه قام بالدعاية؟! وما الضير فيه؟ هو أمر الله وحكمة القرآن العظيم. أليس الدين أكثر الحقوق بدهة؟ من يمنعكم عنه؟ عن سبيل الله؟ يقال عنه: جرم. أهكذا؟ اقرؤوا أمر الله إذن: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحِطُّ أَعْمَالُهُمْ﴾ (محمد: ٣٢).

فإن لم يسمعوا؟ أعيذوا لمن يسمع ومن يؤمن، لأن عملكم خيرٌ. خير للناس والمجتمع والشعب والحكومة والدولة، وحافظ من الشر والبلاء، وقولوا للمؤمنين: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾ (محمد: ٣٣). فإن لم يؤمنوا بذلك فقولوا: ليس الخطر والتهلكة للوطن والشعب في الدين أو الدعاية للدين بل في الإلحاد وترك الدين. هذا كلام قاله رئيس الوزراء أيضاً: "اليمن لم يشكّل خطراً على الوطن. لا مانع في الوقت الحاضر من الدعاية للدين، ولم تعد حاجة إلى اتخاذ تدابير بهذا الشأن".

أيها الحكام المحترمون! أنتم أعلم بالجواب، لكن اسألوا المدعي العام المشتكي مرة أخرى، إن كان يستطيع أن يجيب بالنفي! هل يمكن الوقوف في وجه تردي الأخلاق وزوال العفة وضياع النسب وتجارة الأعراس والزنا والقتل بالقوانين الجزائية وحدها، إذا لم تشرح أوامر الله وحكمة القرآن العظيم للشباب ويعلموها، وإذا منع ذلك بحجة أن الدعاية إليها ممنوعة؟ بأي شيء يمكن صد التخريب الخفي والعلني، والمعدي والخبيث، لفكر فتاك كالشيوعية التي تهدد الدنيا كلها؟.

أيها الحكام المحترمون الأتراك المشدودون إلى الله ربكم وإلى مقدساتكم! انظروا إلى السموم التي ينفثها أعداء الدين الألداء منذ سنين لإفساد عقول أبناء الترك المسلمين الطاهرة النقية وشّلها.

يا لهول الحال والنقائص فينا! المدعي العام لا يهتم بهذا... ولا يتحرك إزاء التحقير والهجوم المخيف ضد دين الإسلام والأديان السماوية كلها، وينشط ضد من يوصي بتدابير لوقاية الشباب من هذا الهجوم!

أيها الحكام المحترمون المسلمون الأتراك! محال أن تحكموا على موكلّي بسبب "مرشد الشباب" من كليات رسائل النور المشحونة بلمعات النور الإلهي والناشرة له.

أيها الحكام المحترمون النجباء المسلمون! تعلمون حق العلم أن العلماء المرشدين الصادقين ورثة الأنبياء. وهؤلاء الذوات المباركون، مكلفون حسب أوامر القرآن المبين بنشر ما ورثوه من المواعظ والنصائح. وهم إذ يوفون بوظيفتهم لا يريدون أجراً ولا جزاء ولا شكوراً. يؤدون الواجب في سبيل الله وطلباً لرضا الله ورسوله ولا غير، ولا تصيهم

فترة حتى النفس الأخير، لأن هذه الوظيفة أمانة الله ورسوله إليهم. فكيف يحاكم ويعذب موكلني لأدائه الأمانة إلى أهلها؟ كيف يكلف هذا العجز بيدنه الضعيف النحيف بكلفة ثقيلة لا تصدق، فيساق إلى السجن؟ هذا من أشنع الظلم. والأمانة الموكلة إليكم هي منع إيقاع هذا الظلم.

النور هو الذي يمحو السيئات والخطايا ودناءة الأخلاق والرذيلة والفساد والفتنة. ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ (النوبة: ٣٢).

المحامي

عبد الرحمن شرف لاج

وأخيراً توجه رئيس المحكمة إلى الأستاذ النورسي متسائلاً:

- هل هناك ما ترغب في قوله، زيادة على ما قلت؟

- أرجو أن تسمحو لي بزيادة كلمة واحدة.

- تفضلوا

- إنني لست أهلاً لكلمات الشناء التي أضفاها عليّ موكلني المحترمون، إذ إنني لست

سوى خادم عاجز للقرآن وللإيمان. ليس عندي ما أقوله سوى هذا.

تبليغ قرار البراءة

ختمت المحاكمة بناء على ذلك. وأعلنت الهيئة الحاكمة بعد المشاورة قرار البراءة

باتفاق الآراء، وقوبل القرار من قبل الجامعيين وأبناء الشعب الحاضرين في قاعة المحكمة

بتصفيق حار. واكتسب القرار الدرجة القطعية إذ لم يقدم المدعي العام طلباً للتمييز.

[وفي هذه الأثناء كتب الكتاب الإسلاميون في الصحف والمجلات مقالات تبين أعمال الأستاذ النورسي ونشاط طلاب النور. ندرج أدناه مقالتين منها^(١)]:

بعد فراق طويل^(٢)

الأستاذ أشرف أديب

لم ألتق الأستاذ منذ سبع وعشرين أو ثمان وعشرين سنة، حيث لم أجد فرصة من المشاغل، رغماً عن رغبتني الدائمة لزيارته ورؤيته وملء العين من محياه المبارك. لكن وجوده المعنوي لم يفارقني أبداً، لأنه يعيش في القلوب. وحين اللقاء واحتضاني له ظهر مقدار الشوق المادي العظيم باللذة النابعة من مُحياه النوراني.

انقضت أربعون سنة على لقائي الأول بالأستاذ. في ذلك الزمان كنا نحضر يومياً في "إدارة المجلة" مع عاكف ونعيم وفريد والإزميرلي المحترمين، ونقضي معاً ساعات طيبة في أحاديث شتى. ويتحدث الأستاذ -بلهجته الخاصة- في المسائل العلمية الرفيعة، فنجد حرارة في أنفسنا من جلادة وحشمة أحاديثه. ذكاء فطري غير معتاد وموهبة إلهية. تظهر قدرة ذكائه وعظمته إزاء أشد المسائل تعقيداً. عقل دائم العمل والفكر. لا يشتغل بالنقل كثيراً، فمرشده القرآن، وهو نبع فيضه وذكائه. وهذه اللمع كلها تدفق من هذا النبع مباشرة. صاحب رأي سديد أشبه بمجتهد أو إمام، وقلبه مليء بإيمان راسخ أشبه بإيمان صحابي، وفي روحه شهامة كشهامة عمر. هو مؤمن أحيا عصر الرسالة السعيدة بين جوانحه في القرن العشرين، وجعل الإيمان والقرآن غاية له. إن غاية غايات الإسلام، أعني أساس "التوحيد" و"الإيمان بالله"، هي أعظم عمدته وعمدة رسائل النور. وأظنه لو كان في خير القرون وظهور الإسلام، فلعل الرسول ﷺ كان يكلفه بمهمة تحطيم الأصنام في الكعبة. فقد كان عدواً للشرك وعبادة الأصنام أقصى درجات العداء.

عمر طويل، قرن واحد تقريباً، قضاه في الجهاد لترسيخ حقائق الإيمان والقرآن في القلوب. عمر قضاه في الفضيلة والشهامة. فهو في ميادين الحرب بطل يتقدم المجاهدين،

(١) تفضل الأخ العزيز "عوني عمر" مشكوراً بترجمتهما.

(٢) عن مجلة سبيل الرشاد، المجلد ٥، العدد ١١٩، سنة ١٩٥٢.

يستل السيف، ثابت الأقدام، يحمل على الأعداء. وهو في الأسر بطل يتصدى لقائد الأعداء. وهو على منصّة الإعدام ظل يسوق قائد الأعداء إلى التفكير ويقوده إلى الإنصاف. فذائي لا يتردد لحظة بالتضحية بروحه من أجل شعبه وبلاده، عدو شديد للفتنة والهدم، يتحمل كل ظلم وتعذيب من أجل منافع الأمة، في سبيل الغاية، أسهل شيء عليه أن يقتات بشربة حساء وقدر ماء ولقمة خبز، ويلبس خرقة خامة بيضاء قطنية يغير ملابسه قبل أن تتسخ ويغسلها، ويعتني بالنظافة اعتناء فائقاً. لا يمسك بالنقود الورقية بيده ولا يحملها. لا يملك شيئاً قيماً في هذه الدنيا. يعيش للناس لا لنفسه.

ضعيف البنية، لكنه ذو مهابة وحشمة. عيناه تشعان نوراً مثل الشمس، ونظراته نظرات سلطان، أغنى سلطان في عالم المعنى مع أنه أفقر الناس في الدنيا مالاً. لم تخلف آلام نيف وثمانين سنة تجعدات في وجهه وإن أشعلت في رأسه الشيب. لون بشرته بياض مشرب بحمرة. غير ملتج. نشط كأنه في عمر الشباب. حلیم وهادئ، لكنه حين يهيج، يبدو كالأسد، ويتصب على ركبته، ويتكلم مثل سلطان.

أكره شيء إلى نفسه السياسة. فلم يمسك في يده صحيفة منذ خمس وثلاثين سنة. مقطوع الصلة بشؤون الدنيا. لا يلتقي إنساناً بعد صلاة العشاء إلى وقت الظهر من غده منشغلاً بالعبادة. ينام قليلاً. وقد منع طلابه أيضاً عن السياسة. طلابه الذين بلغ عددهم ستمائة ألف أو مليون هم أكثر أبناء الوطن تمسكاً بالفضائل. والمئات أو الألوف من طلابه يدرسون العلوم الصرفة في كليات الجامعات، فتراهم أشد الطلاب همة وأعظمهم فضيلة. ولم يقع أن تسبب إنسان من طلاب النور الذين بلغوا مئات الألوف عدداً وانتشروا في أرجاء الوطن كافة، في حادث مخل بالأمن. إن كل طالب لرسائل النور محافظ طبيعي لنظام وانتظام البلاد وحارس للأمن والأمان.

سألته إن كان تعباً من سفر إسطنبول، فقال: إنه لا يقلقني سوى المخاطر المحدقة بالإسلام. إذ كانت المخاطر سابقاً تأتي من الخارج وكانت مقاومتها يسيرة، أما الآن فإنها تأتي من الداخل حيث دبت الديدان في الجسد وانتشرت فيه فتعسرت المقاومة. إنني أخشى ما أخشاه ألا تتحمل بنية المجتمع هذا الداء الوبيل، لأنه لا يشبه بالعدو. إذ يظن من يقطع شربانه ويمص دمه صديقاً. ومتى عميت بصيرة المجتمع إلى هذا الحد فقلعة

الإيمان إذن في خطر داهم. لذا لا قلق لي إلا هذا ولا اضطرب إلا من هذا. بل ليس عندي زمن أضيّعه في التفكير في التعب والمشاق التي أتعرض لها بنفسي. وليتني أتعرض لألف ضعف من شقائي ويسلم مستقبل قلعة الإيمان.

قلت: ألا يمدّكم مئات الألوف من طلابكم بأمل وسلوى للمستقبل؟

قال: بلى، لم ينقطع رجائي وأملي تماماً.. العالم يمر بأزمة خانقة وقلق معنوي عظيم. فالمرض الذي دب في جسم المجتمع الغربي وزعزع دعائمه المعنوية كأنه وباء طاعون وبيل. فما الحلول التي يجابه بها مجتمع الإسلام هذا المرض المعدي الرهيب؟ هل بوصفات الغرب التنتة المتفسخة الباطلة؟ أم بأسس الإيمان الحيوية لمجتمع قلعة الإسلام؟ إنني أرى الرؤوس الكبيرة سادرة في الغفلة. فقلعة الإيمان لا تسند بأعمدة الكفر النخرة، ولهذا أبدل كل جهدي وسعبي في الإيمان وحده.. لذا ركزت جهدي كله من أجل الإيمان فقط.

إنهم لا يفهمون رسائل النور، أو لا يريدون أن يفهموها. يظنونني شيخ مدرسة جامداً في الأمور الدنيوية المادية. لقد اشتغلت بالعلوم الصرفة والعلوم والفلسفات المعاصرة كلها، وحللت أعقد مسائلها، بل صنفت فيها مصنفات. لكني لا أعترف بألعاب المنطق ولا أصبح سمعاً لحيل الفلسفة، بل أترنم بجوهر حياة المجتمع، وبوجوده المعنوي وبوجدانه وإيمانه. فقد حصرت اشتغالي في أساس التوحيد والإيمان الذي أسسه القرآن، ألا وإن العمود الرئيس لمجتمع الإسلام هو هذا، فإذا تزلزل يضيع المجتمع.

يقولون: لماذا تجرح فلاناً وعلاناً؟ لا أدري. لم أشعر ولم أتبين مما أرى أمامي من حريق هائل يتصاعد لهيبه إلى الأعالي يحرق أبنائي ويضرع إيماني، وإذ أنا أسعى لإخماده وإنقاذ إيماني، يحاول أحدهم إعاقتي، فتزل قدمي مصطدمةً به. فليس لهذه الحادثة الجزئية أهمية تذكر وقيمة أمام ضراوة النار؟ يا لها من عقول صغيرة ونظرات قاصرة!

أبظنونني رجلاً مهموماً بحاله يبغى إنقاذ نفسه؟ لقد افتديت بدنياي وآخرتي في سبيل إنقاذ إيمان المجتمع. لم أذق طوال عمري البالغ نيفاً وثمانين سنة شيئاً من لذائذ الدنيا. قضيت حياتي في ميادين الحرب، وزنزانات الأسر، أو سجون الوطن ومحاكم البلاد. لم يبق صنف من الآلام والمصاعب لم أتجرعه. عوملت معاملة المجرمين في المحاكم العسكرية العرفية، ونفيت وغربت في أرجاء البلاد كالمشردين. وحرمت من مخالطة

الناس شهوراً في زنانات البلاد. وسُممت مراراً. وتعرضت لإهانات متنوعة. ومرت علي أوقات رجحت الموت على الحياة ألف ضعف. ولولا أن ديني يمنعني من قتل نفسي، ربما كان سعيد تراباً تحت التراب.

أنا لا أطيق ذلاً ولا إهانة بفطرتي وجبلتي. العزة والشهامة الإسلامية تمنعني بشدة من هذه الأحوال. فإذا تعرضت إلى مثل هذا الحال، لا أطأطئ رأسي مهما كان الذي يواجهني، سواءً إن كان جباراً أشد الناس ظلماً أو قائداً عدواً سفاحاً للدماء، بل ألقى بظلمه ودمويته على وجهه، ولا أبالي إن رمانني في غياهب السجن أو قادني إلى منصة الإعدام. وهذا ما وقع، وما جرى علي فعلاً. ولو صبر قلب ذلك القائد الدموي ووجدانه على الظلم دقائق أخرى لكان سعيد قد شقق والتحق بزمرة الأبرياء المظلومين.

هكذا انقضت حياتي كلها في نصب ومشقة، ونكبة ومصيبة. لقد افتديت نفسي ودنياي في سبيل إيمان المجتمع وسعادته وسلامته. فهيناً وحلالاً طيباً. حتى في دعواتي لا أدعو الله عليهم. فهذه الأحوال صارت رسائل النور وسيلة لإنقاذ إيمان مئات الألوف في الأقل، ربما الملايين - هكذا يقولون - فأنا أجهل عددهم، المدعي العام بأفيون ذكر أنهم خمسمائة ألف أو يزيدون. بالموت كنت أنجو وحدي، لكن ببقائي في الحياة وصبري على الصعاب والمشقات خدمت في إنقاذ الإيمان بقدر هذه الأنفس. فالحمد لله ألف مرة.

لقد ضحيت حتى بأخرتي في سبيل تحقيق سلامة إيمان المجتمع، فليس في قلبي رغب في الجنة ولا رهب من جهنم، فليكن سعيد بل ألف سعيد قرباناً ليس في سبيل إيمان المجتمع التركي البالغ عشرين مليوناً فقط بل في سبيل إيمان المجتمع الإسلامي البالغ مئات الملايين. ولئن ظل قرآننا دون جماعة تحمل رايته على سطح الأرض فلا أرغب حتى في الجنة إذ ستكون هي أيضاً سجناً لي، وإن رأيت إيمان أمتنا في خير وسلام فإنني أَرْضَى أن أُحرق في لهيب جهنم إذ بينما يحترق جسدي يرفل قلبي في سعادة وسرور.

لقد فاض وجاش حضرته. كان يرمي بشواظ كالبركان ويموج بحر قلبه كالطوفان. ويصب كالشلال أعمق نقاط القلب بمياه زمزية عظيمة. لقد أخذه حماس زائد، كأنه يخطب من منصة البرلمان، لا يريد أن يقطع عليه الكلام إنسان. أحسست بالتعب الذي أصابه، فرأيت أن أغير هذا المبحث الحماسي:

- هل انزعجتم في المحكمة؟
- هل في القوانين نص يعدّ تعليم الدين والتزام نساءنا وأخواتنا المحترمات بالمحافظة على عفتهم وشرفهن ضمن دائرة التربية الإسلامية جريمة؟ فليجب أساتذة الجامعة المشتغلون بهذا العلم وبالحقوق عن مغزى ذلك، ومغزى اتخاذ كلمة "الحقيقة الواردة إلى القلب" دليلاً على تأسيس نفوذ شخصي.
- أخذنا الزمان في لقاء الأستاذ مأخذاً، وحين استأذنت للمغادرة كان الوقت متأخراً.

سعيد النور وطلابه

الأديب الشاعر عثمان يوكسل(*)

شيخ كبير السن وذو حظ عظيم. يلتف حوله الناس من عمر ثماني سنوات إلى ثمانين سنة. أعمارهم وعقولهم وأشغالهم شتى، لكنهم يجتمعون على شيء واحد: الإيمان بالله، بالله رب العالمين، وبرسوله الكريم ﷺ، وبكتابه العظيم. ونرى كل واحد منهم كمن وجد شيئاً بعد أن ضيعه، كأن القرآن يتنزل طرياً. حينما تطلع على سعيد النور وطلابه، تحس بنفسك في خير القرون. وجوههم نور، باطنهم نور، ظاهرهم نور... وكلهم في حضور واطمئنان. ما أعظم السعادة في ربط الآصرة بخالق الكون العلي القدوس الدائم الحاضر الناظر، وما أجمل السير في سبيله، بل عشق سبيله حتى الوله.

سعيد النور شيخ عاصر ثلاثة عهود وخبر حوادث الزمان، هي نظام المشروطية، وحكومة الاتحاد والترقي، والجمهورية. عهود زاهرة بالتحغير والانقلاب والانهدام. ما من شيء إلا وأصابه الهدم، غير رجل واحد ظل منتصباً. رجل قدم إلى إسطنبول من شواهد الشرق، من حيث تشرق الشمس، يحمل إيماناً راسخاً كالطود. جعل هذا الرجل صدره المفعم بالإيمان سداً منيعاً أمام أشرار العهود الثلاثة، ولم يفتأ يدعو إلى الله، ويدعو إلى الرسول ﷺ، ولا إلى شيء إلا الله والرسول. رأسه شامخ كقمة جبل "آارات"، لم يطمأئنه ظالم، ولم يغلبه عالم. صلب كالصخور، إرادة قوية عجيبة، ذكاء كالبرق. هذا هو سعيد النور. لم تكن المحاكم العسكرية والمدنية والانقلابات والثورات ومنصات الإعدام المنصوبة له وأوامر النفي والتغريب، رجل المعنويات العظيم عن طريقه. قاوم كل ذلك

بقوة وشجاعة لانهاية لهما نابتان من الإيمان. يقول الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿وَأَنْشُرِ الْأَعْلُونَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (آل عمران: ١٣٣). فكأن كلام الله هذا تجلى في سعيد النور! لقد قرأت مرافعاته في المحاكم. لم تكن دفاعاً عن النفس، بل دفاعاً عن دعوة عظيمة، وشواهد ومعلقات للجلادة والجرأة والذكاء.

لماذا تسنم سقراط موقعاً مرموقاً؟ أليس بسبب استصغاره الحياة من أجل الفكر؟ سعيد النور يعدل سقراط في الأقل! لكن أعداء الإسلام سعوا إلى تعريفه بصفة "رجعي" و"متعالم". ففي نظرهم ينبغي للرجل السامق أن يكون أجنبياً! لقد اقتيد من محكمة إلى محكمة، لكنه كان يحكم وهو محكوم. وانتقل من سجن إلى سجن، لكن السجون صارت "مدارس يوسفية" بهيمته. سعيد النور جعل السجون نوراً، والقلوب نوراً. وذاب عتاة القتل وأعداء الاستقرار والأخلاق القسأة أمام صرح الإيمان هذا، كأنهم خلق جديد، مؤمنون سلمٌ للناس ومواطنون خيرون. فهل استطاعت مدارسكم ومناهج تربيتكم ذلك؟ أم تستطيع؟ غرّبوه ونفوه من بلد إلى بلد.. فصار كل بلد نفى إليه وطناً له، وأحاط به مؤمنون أنقياء وأطهار حيثما حلّ وغرّب. وعجزت القوانين والممنوعات والشرطة والجندرية وجدران السجون السميكة عن التفريق بينه وبين إخوته المؤمنين، فتحولت الكثافة المادية المتراكمة بين المرشد الكبير وطلابه إلى لطائف بفضل الدين والعشق والإيمان. وخلفت تهديداتٌ وتحديات القوة العمياء والمادة الميتة أمواجاً متلاطمة في بحار عالم الروح، وماجت من حجرات القرى لتحيط بأطراف الأرض وتندق أبواب الجامعات.

هرع أبناء الوطن الذين انتهكت مقدساتهم زمناً طويلاً، والأجيال الذين حُكم عليهم بالفناء، والمتلهفون للإيمان إلى سبيله وإلى نوره. طافت رسائل النور للأستاذ من يد إلى يد، ومن لسان إلى لسان، ومن بلد إلى بلد، واقتبس كل شاب أو هرم، كل أمي أو متعلم، كل صغير أو كبير، بقبس من ذلك النور. وصار كل طالب مأكنة أو مطبعة فتحدى الإيمان التقنية، فكتبت رسائل النور واستنسخت آلاف النسخ.

وفزع العمي الذين انطفأت بصائرهم وأنوار أرواحهم وصاروا خرائب، من هذا النور والضياء، فساقوا الرجل العزيز إلى المحاكم بحجة مخالفة الثورة والعلمانية -التي لا يملون من تردادها- وقادوه إلى السجون. بل حاولوا قتله بالسّم مراراً، فصارت سمومهم

ترياقاً... والسجون مدارس. وتجاوز نورهُ، نورُ القرآن، نورُ الله، حدودَ الوطن وسرى في أرجاء العالم الإسلامي. إن في تركيا الآن قوة ينبغي أن تقف إزاءها باحترام كلُّ الهيئات وجميع المواطنين المحبين لوطنهم، هي سعيد النور وطلابه. إنهم ليسوا جمعية ولا هيئة ولا حزباً، وليس لهم أرض ولا مقرات، ولا يرفعون أصواتهم بالضجيج والخطب والمظاهرات والمظاهرات. إنهم زحام الجمع المؤمن الثابت الواعي من المجهولين العارفين الناذرين أنفسهم لهذه الدعوة العظيمة.

سنة ١٩٥٣

بعد براءة الأستاذ سعيد النورسي من محكمة إسطنبول، عاد إلى "أميرداغ". وفي أحد أيام رمضان خرج وحده يتجول في الحقول المحيطة بالمدينة وعريف شرطة مع ثلاثة من أفرادہ يتعقبونه.

ولم يستطع أن يتم تجواله، إذ لحقه هؤلاء وعرضوا عليه أن يلبس القبعة. وعندما قادوه إلى مركز الشرطة احتج الأستاذ على هذه المعاملة، وأرسل عريضة إلى وزارة العدل وإلى وزارة الداخلية في أنقرة، شجب فيها هذه التصرفات الرعناء، كما أرسل صورة من عريضته إلى أحد طلابه في أنقرة ليتبع الموضوع عند المراجع الرسمية ويبلغ النواب المهمين بالحادثة.

ومن أنقرة قرر بعض طلابه إرسال نسخة من هذه العريضة إلى جريدة إسلامية تصدر في "صامسون" باسم "الجهاد الأكبر" (Büyük Cihad) حيث نشرت هناك.

في هذه الأثناء وقعت حادثة الصحفي المعروف "أحمد أمين يالمان" (*) إذ حاول شاب مسلم أن يغتاله، فأطلق عليه عدة رصاصات لم تزل منه مقتلاً.

وقد استغلت هذه الحادثة استغلالاً كبيراً كلُّ الجرائد والمجلات المعادية للإسلام التي غاظها جو الحرية النسبي الذي بدأت تنتفسه الحركات الإسلامية في تركيا، فأرادت أن تظهر بأن إعطاء أية حرية لمثل هذه الحركات ستكون تتيحها ظهور الرجعية والإرهاب.. الخ.

كانت حملة صحفية رهيبة لم يستطع رجال الحزب الديمقراطي الحاكم أن يقفوا أمامها، هذا فوق وجود جناح معاد للإسلام في هذا الحزب أيضاً. فصدرت الأوامر

بغلق جميع الجرائد والمجلات الإسلامية، واعتقال جميع الكتاب والمفكرين المسلمين العاملين فيها.

وأعتقل في هذه الحملة من الاعتقالات المدير المسؤول عن جريدة "الجهاد الأكبر" وأحد طلبة النور وهو السيد "مصطفى صونغور" وسيبقا معاً إلى المحكمة في مدينة "صامسون" وقد أصدرت المحكمة قرارها بالحكم عليهما، ولكن محكمة التمييز ألغت هذا القرار وأصدرت قرارها بالبراءة.

وكانت في هذه الأثناء تنطلق بيانات وآراء في الصحف ضد توسع حركة النور في البلاد. وتبدأ التحريات في خمس وعشرين منطقة بتركيا وتبلغ فتح دعاوى، مستهدفة الحكم على قريب من ستمائة طالب من طلاب النور. إلا أنهم لا يجدون جرماً ولا شيئاً يكون مستند اتهام في رسائل النور أو طلاب النور.

وفتحت دعوى في مدينة "صامسون" ضد الأستاذ بديع الزمان بسبب مقالة نشرت في جريدة "الجهاد الأكبر" تحت عنوان "أكبر برهان" وطلب مثوله أمام محكمة "صامسون"، ولكن الأستاذ كان آنذاك مريضاً، فضلاً عن تقدمه في السن.

وبالرغم من حصوله على تأييد طبي من طبابة قضاء "أميرداغ" وكذلك من مدينة "أسكي شهر" إلا أن محكمة صامسون أصرت على حضوره.

وبناء على هذا الإصرار توجه إلى إسطنبول^(١) في طريقه إلى صامسون. ولكن مرضه

(١) قضى الأستاذ في إسطنبول ثلاثة أشهر تقريباً -من أوائل مايس إلى نهاية تموز- أمضى معظمها في بيت أحد طلابه المقربين "محمد فرنجي".

في تلك السنة (١٩٥٣م) كانت إسطنبول تنهياً للاحتفال بمرور خمسمائة عام على فتحها. وقد أقيم فعلاً احتفال مهيب دعي إليه الأستاذ بديع الزمان مع المدعوين الرسميين، وفي هذا الاحتفال التقى بطريك الروم "آشنو كراس". وأثناء اللقاء جرى بينهما الحوار الآتي:

سعيد النورسي: يمكن أن نكونوا من أهل النجاة يوم القيامة إذا آمنتُم بالدين النصراني الحق بشرط الاعتراف بنبوّة سيدنا محمد ﷺ وبالإعتراف بالقرآن الكريم كتاباً من عند الله.

الطريك: إنني اعترف بذلك.

سعيد النورسي: حسناً، فهل تعلنون ذلك أمام الرؤساء الروحانيين الآخرين؟

الطريك: أجل، إنني أقول ذلك ولكنهم لا يقبلون. (ش) ٤٠٥.

وحضر في هذه الأثناء مستشرق إنكليزي إسطنبول. وألقى محاضرة حول "السموات السبع" مشككاً فيها. فوزع طلاب النور في اليوم التالي منشوراً يتضمن تفسير الأستاذ حولها من "إشارات الإعجاز" ولما اطلع عليه المستشرق المذكور اختصر محاضراته في ذلك اليوم وأنهى سلسلة محاضراته التي كان من المقرر أن تدوم خمسة أيام وغادر إسطنبول دون أن يعقب. (من محمد فرنجي، 4 Son Şahitler ص ٣٥٦).

اشتد بعد وصوله إلى إسطنبول، فلم يعد بإمكانه مواصلة السفر فاستحصل تقريراً طبياً من الهيئة الصحية، وأرسله إلى المحكمة.

كان هذا التقرير الطبي يؤيد بأن حالة الأستاذ بديع الزمان لا تسمح له أبداً بالسفر لا براً ولا بحراً ولا جواً، ولكن المدعي العام بالرغم من هذا التقرير الطبي الواضح القاطع، كان يطالب بشدة بحضوره ومثوله أمام المحكمة.

واستناداً إلى التقرير الطبي قررت المحكمة أن تقوم محكمة إسطنبول باستجواب الأستاذ نيابة عنها.

دفاع أمام محكمة إسطنبول

«ساق أعداؤنا المستترون دوائر العدل ضدي مرة أخرى في شهر رمضان الشريف. المسألة في حقيقتها ذات علاقة بمجموعة شيوعية سرية. فقد أرسلوا إليّ مخالفين للقانون مخالفة كاملة، ثلاثة جنود جندرمة مسلحين مع رأس عرفاء وأنا في السهول والجبال وحدي بغير رفقة. قائلين: "أنت لا تلبس القبعة"، وأخذوني جبراً إلى مركز الشرطة.

فأقول لمتنسي العدل كلهم الذين يتغون العدل: لا مفر في محكمة الحشر الكبرى من العقاب لمن يذيقونني من العذاب الوجداني منذ ستين بحججهم التافهة ومخالفتهم العجيبة للقانون حيث ينبغي حقاً أن يتهموهم بمخالفة القانون إذ يخرقون القانون باسم القانون من خمسة وجوه فيعتدون على القوانين الإسلامية بخسمة وجوه. نعم.. أفي الأرض كلها قانون يتهم رجلاً منعزلاً منذ خمسة وثلاثين عاماً عازفاً عن الأسواق والأرياف، لأنه لم يضع فوق رأسه قبعة الإفرنج؟

إن من في قلبه ذرة وجدان لينفر ويكره أن يكلف بقوة القانون رجلاً بلبس القبعة ليشبه القسيسين الأجانب، رجلاً منزوياً لا يختلط بالناس ولا يريد أن يشغل روحه في شهر رمضان الشريف بشيء قبيح مثل هذا -وخلافاً للقانون- وينقطع عن لقاء أخلائه حتى لا يتذكر الدنيا، بل لا يستدعي طبيباً ولا يأخذ دواء مع شدة مرضه حتى لا يشغل روحه وقلبه ببدنه. مع أن شرطة خمس محاكم وخمس ولايات لم يتعلقوا بما يلبس في رأسه منذ ثمان وعشرين سنة، وفي هذه الكثرة الأخيرة خاصة في محكمة إسطنبول

العادلة أمام أنظار أكثر من مائة شرطي وتجوله شهرين راجلاً كيفما شاء، ومع أن محكمة التمييز قررت إجازة القانون للبس "البريه" (بدل القبعة) ومع إقرار عدم إلزام لبسها للنساء ولحاسري الرأس وللجنود العسكريين وللموظفين الرسميين وانعدام المصلحة في لبسها، فلا تقع مسؤولية قانونية على من يلبس البريه وعدّه زياً رسمياً، فأنا لست موظفاً.

فإن ردّ ذلك بالقول: إنما أنا مأمور منفذ، قيل له: وهل يؤمر الناس بشيء حسب الهوى ليكون قانوناً جبرياً فيدفع عن نفسه بأنه مأمور؟ وفي القرآن الحكيم آية في النهي عن التشبه باليهود والنصارى، وفيه أيضاً: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ (النساء: ٥٩) أي أمر بإطاعة أولي الأمر، ولكن بشرط عدم التناقض مع إطاعة الله ورسوله، فيقدر أن يتصرف منفذاً تلك الطاعة. والحال أن قوانين العرف الإسلامي في هذه المسألة، تأمر بالشفقة على المرضى وتنهى عن إيذائهم، والرحمة بالغرباء والبعد عن إيلاهم، ودفع النصب والأذية عن خدام القرآن وعلوم الإيمان في سبيل الله. وإن تكليف رجل انقطع عن الناس وتترك الدنيا لأهلها بلبس قبة القسيسين نقض للقانون بمخالفة القانون ومصادرة لقوانين العرف الإسلامي من مائة وجه، لا من عشرة وجوه، واعتداءً على هذه القوانين القدسية من أجل أمر بالهوى. ولا مكان للشك أو الشبهة في أن تصرفاً مثل هذا مع رجل بلغ حافة القبر أنهكه المرض وأضناه الهرم، وغريب ومنزل عن الناس وتارك للعالم منذ خمس وثلاثين سنة لكي لا يخالف السنة السنية، إنما هو ثمرة مؤامرة خبيثة ضد الوطن والشعب والإسلام والدين لحساب الفوضى والشيوعية المستترة، كذلك ضد نواب البرلمان ذوي الدين، وحتى ضد الديمقراطيين عموماً، الذين ينوون خدمة الإسلام والوطن ويحاربون التخريبات الأجنبية الرهيبة. فليحذر النواب المتدينون ولا يتركوني وحيداً في الدفاع ضد هذه المؤامرة الخبيثة.

إن خدام الحقيقة القرآنية المضحي الذي رفض الهوان ولم يقف احتراماً لقائد قوات الروس إذ مرّ أمامه قصداً ثلاث مرات، فشمخ برأسه أمام التهديد بالإعدام من أجل صون العزة الإسلامية، واستهان بتهديد الإعدام من أجل شرف الإسلام فواجه قائد الإنكليز المحتلين لإسطنبول ومصدري الفتاوى تحت تأثيره، بقوله في المطبوعات: "ابصقوا في وجوه الظالمين الصفيقة"، ولم يلتفت إلى غضب مصطفى كمال وسط خمسين نائباً في

المجلس حين قال له: "تارك الصلاة خائن" ولم يداهن في الجواب أمام المحكمة العسكرية العرفية إذ قال: أنا مستعد للتضحية بروحي من أجل مسألة واحدة للشريعة، واختار الانزواء ثمانيا وعشرين سنة حتى لا يتشبه بالكفار، إن قيل له بصراحة وبخلاف القانون: "تلبس القبة على رأسك فتشبه أhabar اليهود وقسس النصارى وتخالف إجماع علماء الإسلام أو تعاقب"، فإنه يفتدى الحقيقة القرآنية بروحه مائة مرة بلا تردد وبشهادة سيرته، ولو مزقوه إرباً إرباً وألقوه في نار كالجحيم، بله الحبس الديني والعقاب والتعذيب!.

فما الحكمة في القوة المعنوية في تحمل هذا المضحي، لأشد الظلم النمرودي من أعداء الوطن والدين المستترين، وفي عدم مواجهته القوة المادية بالرد المادي التخريبي؟
فها أنا أعلن لكم ولأهل الوجدان كلهم جميعاً أن القرآن الحكيم قد علّمه ذلك لثلاً يتضرر تسعون بريئاً بسبب زنادقة ملحدين نسبتهم عشرة في المائة، ومن أجل المحافظة على الأمن والنظام في الداخل بقوته كلها، ومن أجل نصب حارس في قلب كل إنسان بدروس النور. ولولا ذلك، لانتقمْتُ في يوم واحد من أعدائي الذين ظلموني مدة ثمان وعشرين سنة. فتراه لا يدافع ضد من يهين عزته وكرامته حفاظاً على الأمن من أجل الأبرياء، ويقول: أنا مستعد للتضحية بحياتي الدنيوية من أجل ملة الإسلام، بل حتى بحياتي الأخروية إن لزم الأمر.

وأخيراً وبعد انتهاء جميع الإجراءات اللازمة أصدرت المحكمة قرارها بالبراءة، إذ لم تجد في تلك المقالة ما يؤخذ عليها).

مراحل متنوعة من سيرته في إسبارطة

أسس طلاب النور النشيطون في "أورفة" و"دياربكر" مدرسة نورية في كل منهما. وبدأت دروس علمية بقراءة رسائل النور على الجماعة الحاضرة من كل أصناف الشعب، وجُلّهم من طلاب المدارس والشباب. فأنعشوا طلبة العلم الشريف (العلوم الشرعية) الضرورية في ذلك الزمان، وأوفوا بخدمة إيمانية جلية في المناطق الشرقية.

وانتهت محاكمة "أفيون" أيضاً. إذ أظهر تقرير هيئة شورى الشؤون الدينية التي دققت رسائل النور سنة ١٩٥٦ سمة الخدمة في التكامل الإيماني والأخلاقي لرسائل النور،

فاستندت محكمة أفيون إلى هذا التقرير لتبرئة رسائل النور ورفع الحظر عنها واكتسب قرار المحكمة الصفة القطعية.

بعد قرار البراءة في محكمة أفيون، أصدر حاكم التحقيق في "إسبارطة" أيضاً قراراً بعدم قانونية المحاكمة. فاجتازت رسائل النور منافذ العدل واكتسبت حرية عامة وشاملة ولقيت قبولاً حسناً.

مع دوام خدمة رسائل النور في أرجاء الأناضول، لم تحصر المدارس النورية، في أنقرة وإسطنبول ودياربكر وأورفة خاصة، بل تعدت ذلك إلى أرجاء واسعة في البلاد. وفي أنقرة، سعى أهل الحماية والطلبة الجامعيون في نشر مجموعات رسائل النور في الأرجاء بطبعها بالمطابع، وإيصالها إلى الجمهور للإفادة منها بالأحرف الجديدة (اللاتينية) خاصة.

عودة إلى مدينة الذكريات "بارلا"

بعد قضائه ما يقارب ثلاثة أشهر في إسطنبول، حنّ الأستاذ إلى زيارة المدن التي قضى فيها فترات لا يمكن نسيانها من حياته.

فزار "أميرداغ" ثم توجه إلى "أسكي شهر" ومنها إلى "إسبارطة" بقى فيها ثمانين يوماً. ومن إسبارطة توجه مع رهط من طلابه إلى مدينة الذكريات بارلا.. المدينة التي شهدت أول انبثاق لحركة النور ولرسائل النور.. ومنها انتشرت إلى الأرجاء "الكلمات" و"المكتوبات" و"اللمعات" التي تمثل أنوار هداية القرآن الحكيم.. فبارلا هي المركز الأول لمدرسة رسائل النور. المدينة التي سيق إليها منفيًا قبل خمس وعشرين سنة، فبارك الله له في أيام النفي، وجعل تلك الأيام من أعز الأيام على قلبه، وجعل ذكريات هذه البلدة من أحب الذكريات إلى نفسه.

وها هو يعود إليها، في يوم رائق من أيام الربيع، حاملاً ثقل تلك السنين الحافلة بالأحداث والمواقف والابتلاءات...يعود إليها طليقاً يحف به بعض ثمار دعوته.. طلاب يتلأأ النور في جباههم المضيئة، وتطفح قلوبهم بحب الله ورسوله.

ويسمع أهل البلدة بقدوم الأستاذ، فيخرجون رجالاً ونساءً، وأطفالاً وشباباً لرؤيته. ويقفز الأطفال الصغار وهم يرددون: "جاء الشيخ.. جاء الشيخ!"

إنهم لم يروا هذا الشيخ الوقور، ولكنهم سمعوا عنه من آبائهم وأمهاتهم. وبينما كان الأستاذ يتقدم نحو البيت الذي بقي فيه ثماني سنوات، إلى البيت الذي كان أول مدرسة نورية، مرّ من أمام بيت تلميذه القديم "مصطفى جاويش"^(١) وهو النجار الذي عمل له الغرفة غير المسقّفة بين أغصان الشجرة التي كان يقضي فيها ساعات العبادة والتأمل. مرّ أمام دار تلميذه ورأى القفل الكبير على باب الدار. كان تلميذه القديم الوفي قد توفي سنة ١٩٣٧، بينما كان الأستاذ يعيش في منفاه في "قسطنطيني". مات هذا الرجل ولذلك لم يتيسر له لقاءه بعد خروجه من بارلا. ولم يشعر إلا والدموع تساقط من عينيه وتبلل خده. وأخيراً وصل إلى بيته السابق، إلى مدرسته الأولى حيث كانت شجرته الحبيبة تنتصب أمامه وكأنها -هي الأخرى- ترحب به.. جاشت في نفسه العواطف وطلب من طلابه ومن الأهالي أن يتركوه وحده.

ثم ذهب إلى تلك الشجرة التي قضى معها أكثر من ثماني سنوات احتضنها وأجهش بكاء طويل.

كانت هذه الشجرة قطعة من حياته، ومن ذكرياته. كم من ليال قضّاها بين أغصانها يتهدج ويذكر الله! كم من ساعات قضّاها يؤلف رسائل النور ويسمع حفيف أغصانها وأوراقها وتغريد الطيور عليها. كم من ليلة من ليالي الشتاء الطويلة الحالكة أرق في غرفته، فلم يكن له أنيس في وحدته غير صوت هذه الشجرة تعصف بها الرياح، أو يسمع صوت قطرات الأمطار على أوراقها. لقد كانت له أنساً في وحدته، وسلوة في وحشته، وصديقاً في غربته.

وها هو الآن يرجع إليها بعد عشرين عاماً يتحسسها، ويريد أن يضمها إلى صدره ولا يتمالك نفسه من البكاء عند لقاءها.

بعد ذلك صعد إلى غرفته، واختلى بنفسه هناك مدة ساعتين تقريباً. كان يبكي وهو يستعيد ذكريات أيامه الطويلة التي قضّاها هنا، وكان الناس والطلاب المحيطون بالبيت يسمعون نشيج الشيخ فتدمع أعينهم كذلك.

وإنه لمظهر من مظاهر تجليات الرحمة الإلهية اللانهائية. ففي زمن قد سلف، نفي من

(١) اللمعات، اللمة العاشرة.

شرقي الأناضول إلى أرجاء "إسبارطة"، ومنها إلى ناحية "بارلا" بين الجبال، لعله يموت هنا ويخبو ذكره. ولكن لم تثنه عن سبيل دعوة القرآن والإيمان حوادث العصر التي أحاطت بالأمم والشعوب وغيرت العقول والتصورات. فقد أيقن بيقين إيماني في روحه، بأن الشعب سوف يحتضن يوماً الحقيقة التي يدعو إليها، وسوف يكون سعيد الوحيد، ألف سعيد، ومائة ألف سعيد، وبأن فتوحات وانتشار الحقائق الإيمانية التي يخاطب بها الإنسانية آتية لا محالة، وبأن غيوم الظلمات المحيطة بالآفاق الإسلامية زائلة بنور الهداية التي اقتبسها من القرآن، وينشط الروح من جديد في الإيمان الذي يظنونه آيلاً إلى الموت، فيبعث النفوس ويعيد الحياة إلى أمة الإسلام.

سنة ١٩٥٦

محكمة أفيون تبرئ ساحة رسائل النور

كانت محكمة أفيون قد شكلت لجنة من الخبراء لتدقيق رسائل النور سنة ١٩٤٨م وإبداء الرأي حولها، ورؤية ما إذا كانت تحوي ما يؤخذ عليه القانون التركي. وقد استمرت هذه المحكمة طوال ثماني سنوات وأخيراً أصدرت قرارها في ١٩٥٦/٩/١١ استناداً إلى التقرير المقدم من لجنة الخبراء في ١٩٥٦/٥/٢٥ بأن هذه الرسائل تخلو من أي عنصر مخالف للقانون.

طبع رسائل النور

كان هذا القرار يعني إمكان طبع رسائل النور وتوزيعها علناً، وفعلاً شمر طلاب النور عن سواعدهم، فبدأت المطابع في إسطنبول وفي أنقرة، وفي صامسون وفي أنطاليا بطبع هذه الرسائل. وكانت الملزمات يؤتى بها إلى الأستاذ قبل الطبع فيقوم بتصحيحها. كان الأستاذ فرحاً بطبع رسائل النور ويقول: "هذا هو عيد رسائل النور. كنت أنتظر مثل هذا اليوم، لقد انتهت مهمتي إذن، وسأرحل قريباً". وعندما كان يخرج لأمرٍ ما سرعان ما يعود قائلاً لطلابه: لا بد أن الملزمات قد جاءت.. لا يجوز لنا أن ندعها تنتظر. يجب العودة حالاً.^(١)

سنة ١٩٥٧

في الانتخابات العامة

جرت الانتخابات العامة في تركيا في هذه السنة، وكان هناك حزبان رئيسان يتنافسان فيها على الحكم وهما: الحزب الديمقراطي الحاكم وحزب الشعب الجمهوري المعارض مع أحزاب صغيرة لا تؤثر كثيراً في سير الانتخابات. وبالرغم من أن الحزب الديمقراطي لم يكن حزباً إسلامياً، إلا أن جو الحرية الذي ساد تركيا عقب توليه الحكم، وانحسار موجة العداء الوحشي للإسلام، كل ذلك كان يعطي مسوغاً كافياً للحركات الإسلامية في تركيا أن تصوت بجانب الحزب الديمقراطي. ومع أن الأستاذ سعيد النورسي لم يدخل الحياة السياسية ولم يؤلف حزباً سياسياً ولم يعلن عن أية نشاطات سياسية كانت، إلا أنه قرر التصويت للحزب الديمقراطي في تلك الأيام ليحول دون مجيء حزب الشعب إلى السلطة. وفعلاً ذهب إلى صندوق الاقتراع وأدلى بصوته لصالح الحزب الديمقراطي.^(١)

الأيام الأخيرة

قضى الأستاذ سعيد مع طلبته سنواته الأخيرة في مدينة إسبارطة، وكان أحياناً يقوم بزيارة بارلا وكذلك أميرداغ. ولتقدمه في السن فإنه كان في أكثر الأحيان طريح الفراش. كان قليل اللقاء بالناس ولا يستطيع قبول زيارة المئات من الزوار وكان يقول: "إن قراءة رسائل النور أفضل مائة مرة من الحديث معي".

وكان طلابه يقدرون وضعه، فلا يدخلون عليه إلا إذا طلبهم، ومع ذلك فإنه لم يكن منقطعاً عن العالم الخارجي كلياً، إذ كان يتتبع الأخبار وعين أحد طلبته ليقرأ له أهم ما في الجرائد. فكان يهتم بأخبار طبع رسائل النور وبالمحاكمات المتعددة لطلاب النور.

قضية أنقرة

في ١٦/٤/١٩٥٨ اعتقل جميع من كان في خدمة الأستاذ من طلاب النور والذين يعملون في نشر الرسائل في أنقرة وإسطنبول وإسبارطة. وقد تقدّم للدفاع عنهم المحامي

"بكر برق" (*) واجتمع هذا المحامي في سجن أنقرة بطلاب النور المسجونين وقال لهم: "إنني أحب أن آخذ رأيكم في مسألة تخصصكم. فهل تحبون أن أسعى إلى إطلاق سراحكم من السجن في اقرب فرصة، أم ترغبون أن أسعى للدفاع عن دعوتكم وشرحها دون الاهتمام بقضية إطلاق سراحكم؟"

أجاب طلاب النور معاً: "نرجو منك أن تحصر جهدك في بيان وشرح دعوتنا السامية فنحن راضون أن نبقى في السجن سنوات عديدة".^(١)
وقد أدرك هذا المحامي أنه ليس أمام أناس اعتياديين، بل هو أمام أناس نذروا أنفسهم لدعوتهم، وقد أخذ هذا المحامي على نفسه مهمة الدفاع في جميع المحاكم التي سيق إليها طلاب النور.. وما أكثرها!

لقاء الدواع

بدأ الأستاذ سعيد النورسي في أواخر أيامه بسلسلة من السفرات وكأنه كان يريد أن يودع طلابه.

ففي ١٢/١٩ لسنة ١٩٥٩ سافر إلى أنقرة، ومنها إلى أميرداغ، ومنها إلى قونيا، ومنها إلى أنقرة أيضاً، ومنها إلى إسطنبول في ١/١/١٩٦٠ حيث بقى فيها يومين، ثم رجع إلى أنقرة مرة أخرى في ٣/١/١٩٦٠ وألقى على طلابه "الدرس الأخير". وقد أجرى مندوب صحيفة "تايمس" اللندنية معه تحقيقاً صحفياً طويلاً، ونشر في ٦/١/١٩٦٠.^(٢) ثم رجع إلى قونيا، ومنها -وفي اليوم نفسه- توجه إلى إسبارطة.

هذه الزيارات المتلاحقة، أثارت رعب الأوساط المعادية للإسلام وسخطهم، فأخذت صحفها تشن حملة عنيفة على الأستاذ وتثير الرأي العام ضده مختلقة سلسلة من الأكاذيب والافتراءات، وكان هناك فتنة دامية ستحل بالبلد.

لذلك فما إن رجع إلى أنقرة ١١/١/١٩٦٠ حتى أبلغته الحكومة بأن من الأفضل له أن يقيم في أميرداغ. وفعلاً رجع الأستاذ إلى أميرداغ، ولكنه طلب من الحكومة أن تسمح له بالإقامة شهراً في أميرداغ، شهراً في إسبارطة.

(١) (ش) ٢٦١.

(٢) في صحيفة "بني صباح" وفي صحيفة "دنيا" في ٨/١/١٩٦٠ (ب) ٣/١٦٢١.

في ١٩٦٠/١/٢٠ توجه الأستاذ بديع الزمان من أميرداغ إلى إسبارطة، وبعد أن أمضى مدة فيها توجه إلى أفيون، وبعد أن أمضى فيها يوماً واحداً قفل راجعاً إلى أميرداغ.

الدرس الأخير حول العمل الإيجابي البناء^(١)

الذي ألقاه الأستاذ النورسي قبل وفاته على طلبة النور

«إخواني الأعزاء!

إن وظيفتنا هي العمل الإيجابي البناء وليس السعي للعمل السلبي الهدام. والقيام بالخدمة الإيمانية ضمن نطاق الرضى الإلهي دون التدخل بما هو موكول أمره إلى الله. إننا مكلفون بالتجمل بالصبر والتقلد بالشكر تجاه كل ضيق ومشقة تواجهنا وذلك بالقيام بالخدمة الإيمانية البناءة التي تثمر الحفاظ على الأمن والاستقرار الداخلي.

أقول متخذاً من نفسي مثلاً: إنني لم أنحن تجاه التحكم والتسلط منذ القدم. وهذا ثابت بكثير من الحوادث. فمثلاً: عدم قيامي للقائد العام الروسي، وكما أنني لم أعر أية أهمية على أسئلة الباشوات في ديوان المحكمة العسكرية العرفية الذين كانوا يهددونني بالشنق والإعدام. وطوري هذا تجاه القواد الأربعة تُبين عدم قبولي للتحكم والتسلط. إلا أنني قابلت المعاملات الشائنة بحقي منذ ثلاثين سنة الأخيرة بالرضى والقبول، ذلك من أجل السعي للعمل الإيجابي والاجتناب عن السعي للعمل السلبي لئلا أتدخل بما هو موكول أمره إلى الله. بل قابلتها بالرضى والصبر الجميل اقتداءً بنبي الله جرجيس عليه السلام وبالصحاب الكرام الذين قاسوا كثيراً في غزوة بدر وغزوة أحد.

فمثلاً: إنني لم أدع حتى على المدعي العام الذي اتخذ علينا القرار الجائر رغم أنني قد أثبت أخطاءه البالغة واحداً وثمانين خطأً. لأن المسألة الأساسية في هذا الزمان هو الجهاد المعنوي، وإقامة السد المنيع أمام التخريبات المعنوية، وإعانة الأمن الداخلي بكل ما نملك من قوة.

نعم، إن في مسلكتنا قوة. إلا أننا لم نقم باستعمالها إلا في تأمين الأمن الداخلي. لذا قمت طوال حياتي بتحقيق الأمن الداخلي اتباعاً لدستور الآية الكريمة: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ

(١) جزى الله الأخ "دنجر قورقماز" خيراً لترجمته هذا الدرس القيم.

أُخْرَى ﴿أَي لا يجوز معاقبة إنسان بجريمة أخيه أو أحبائه﴾. إن هذه القوة لا يمكن استعمالها إلاَّ ضد الهجمات الخارجية. إن وظيفتنا -وفق دستور الآية الكريمة المذكورة- هي الإعانة على ضمان الأمن الداخلي بكل ما نملك من قوة. لهذا السبب لم تشتعل نار الحروب الداخلية المخلة بنظام الأمن الداخلي في العالم الإسلامي إلاَّ بنسبة واحد من الألف. وهذا كان من جراء الاختلاف في الاجتهاد. إن أعظم شرط من شروط الجهاد المعنوي هو عدم التدخل بالوظيفة الإلهية. أي بما هو موكول إلى الله. بمعنى أن وظيفتنا الخدمةُ فحسب، بينما النتيجة تعود إلى رب العالمين، وأنا مكلفون ومرغمون في الإيفاء بوظيفتنا.

وأقول كجلال الدين خوارزم شاه: "إن وظيفتي هي الخدمة الإيمانية، أما النصر أو الهزيمة فمن الله سبحانه". وإنني قد تلقيت درس التقلد بالإخلاص التام من القرآن الكريم. أجل، يستوجب مجابهة الهجمات الخارجية بالقوة، لأن أموال العدو وذرائه تكون بمثابة غنيمة للمسلمين. أما في الداخل فالأمر ليس هكذا. ففي الداخل ينبغي الوقوف أمام التخريبات المعنوية بشكل إيجابي بناء، بالإخلاص التام. إن الجهاد في الخارج يختلف عما هو في الداخل. وقد أحسن إليَّ المولى سبحانه وتعالى بملايين من الطلاب الحقيقيين. فنحن نقوم بالعمل الإيجابي البناء بكل ما نملك من قوة في سبيل تأمين الأمن الداخلي. فالفرق عظيم بين الجهاد الداخلي والخارجي في الوقت الحاضر.

وهناك مسألة أخرى في غاية الأهمية. وهي أن متطلبات المدنية الدنيا (الدنية بالنسبة لأحكام القرآن الكريم) في يومنا هذا قد زِيدَت الحاجات الضرورية من الأربعة إلى العشرين. فجعلت الحاجات غير الضرورية بمثابة الحاجات الضرورية بالإدمان والاعتیاد والتقليد. فتجد من يفضل الدنيا على الآخرة رغم إيمانه بها لانهماكه بالأمور المعاشية والدنيوية ظناً منه أنها ضرورة.

قبل أربعين سنة أرسل إلى قائد عام عدداً من الضباط وحتى بعض العلماء الأئمة من أجل أن يعيدوني شيئاً إلى الأمور الدنيوية. فقالوا: "نحن الآن مضطرون". أي إننا مضطرون في تقليد بعض الأصول الأوروبية وموجبات المدنية حسب القاعدة المعروفة: "إن الضرورات تبيح المحظورات". قلت لهم: إنكم منخدعون تماماً؛ لأن الضرورة النابعة من سوء الاختيار لا تبيح المحظورات. فلا يجعل الحرام بمثابة الحلال. بينما إن لم

تنبع من سوء الاختيار، أي إن لم تأت الضرورة عن طريق الحرام فلا ضير. فمثلاً: إذا سكر شخص بسوء اختياره بشربه الحرام، ثم اقترف جريمة وهو سكران، فإن الحكم يجري عليه ولا يكون بريئاً بل يعاقب. ولكن إذا قام طفل مختل العقل بقتل شخص ما -وهو في حالة الاختلال- فهو معذور ولا يعاقب. لأنه لم يقترف الجريمة بإرادته. وهكذا قلت للقواد والأئمة: أيّ الأمور تُعد ضرورة مما سوى الأكل والعيش؟ فالأعمال النابعة من سوء الاختيار والمويل غير المشروعة لا تكون عذراً لجعل الحرام حلالاً. فإذا أدمن الإنسان نفسه على شيء كمتابعته للأفلام في السينما وارتياحه المسرح والرقص بكثرة، وهذه الأمور ليست ضرورية قطعاً، بل نابعة من سوء الاختيار، لذا لا تكون كافية لجعل الحرام حلالاً. وحتى القانون الإنساني قد أخذ هذه الأمور بنظر الاعتبار، وميز بين الضرورة القاطعة غير الداخلة ضمن إطار الاختيار والأحكام الناشئة من سوء الاختيار. إلا أن القانون الإلهي قد فرق بينهما بشكل أساس وثابت راسخ ومحكم.

إخواني! لا تهاجموا بعض العلماء الذين ظنوا بعض إلهاءات العصر ضرورة، وركنوا إلى البدع. لا تصادموا هؤلاء المساكين الذين ظنوا الأمر "ضرورة"، بدون علم وعملوا وفقها. ولهذا فنحن لا نقوم باستعمال قوتنا في الداخل. فلا تتحرشوا بهم وإن كان المعارضون لنا من العلماء الأئمة. إنني قد تحملت وحدي المعارضات كافة، ولم أفتر مقدار ذرة قط. ووفقت في تلك الخدمة الإيمانية بإذن الله. فالآن رغم وجود ملايين من طلبة النور، فإنني أسعى بالعمل الإيجابي وأتحمل جميع مظالمهم وإهاناتهم وإثاراتهم. إننا لا نلتفت إلى الدنيا، فإذا ما نظرنا إليها فنحن لا نسعى إلى ما سوى معاونتهم فيها. فنحن نعاونهم في تأمين الأمن بشكل إيجابي. وبسبب هذه الحقائق وأمثالها نحن نسامحهم حتى لو عاملونا بالظلم.

إن نشر رسائل النور قد أورث قناعة تامة بأن الديمقراطيين يساندون الدين ولا يخالفونه. لذا فإن التعرض للرسائل يكون ضد منفعة الوطن والملة.

وها مثلاً صغيراً لقاعدة: "إنَّ ضرورةً نبعت من سوء الاختيار لا تكون سبباً لجعل الحرام حلالاً": كانت هناك رسالة خاصة سرية قد منعت نشرها، ووصيت تلاميذي بنشرها بعد وفاتي، إلا أن المحاكم قد عثرت عليها وطالعتها بدقة ثم قضت بالبراءة. وأيدت

محكمة التمييز هذه البراءة. وأنا بدوري أذنتُ بنشرها من أجل تأمين الأمن الداخلي والحيلولة دون أن يمس خمساً وتسعين بالمائة من الأبرياء ضرر، وقلت: يمكن نشرها بالاستشارة...

المسألة الثالثة:

يسعى الكفر المطلق حالياً لنشر جهنم معنوي رهيب، بحيث يلزم أن لا يقترب منه أي إنسان في العالم أجمع. ولكن أحد أسرار كون القرآن الكريم "رحمة للعالمين" هو: مثلما أنه رحمة للمسلمين جميعاً، فهو رحمة لجميع الكفار أيضاً وبني آدم أجمع، حيث يورثهم احتمال وجود الآخرة ووجود الله سبحانه، فيخفف عنهم بهذا الاحتمال شيئاً من الجحيم المعنوي الذي يكتوون بناره في هذه الحياة الدنيا. وهذا سر دقيق من أسرار كون القرآن رحمة للخلق أجمعين. إلا أن قسم الضلالة من العلم والفلسفة، أي غير المتوافق مع القرآن الكريم والمنحرف عن الصراط السوي قد بدأ بنشر الكفر المطلق على طراز الشيوعيين. فبدأ بتطعيم أفكارهم المولدة للفوضى والإرهاب ونشرها بوساطة المنافقين والزنادقة وبوساطة قسم من السياسيين الكفرة. علماً أن الحياة لا يمكن أن تسير بدون دين. ومبدأ "لا حياة لأمة بلا دين" تشير إلى هذه النقطة. إذ لا يمكن العيش -في حقيقة الحال- بالكفر المطلق. ولهذا فإن إحدى المعجزات المعنوية للقرآن الحكيم أنه قد منح هذا الدرس لطلاب رسائل النور ليكونوا سداً أمام الكفر المطلق والإرهاب في هذا القرن. وحقاً إن الرسائل أدت دورها. نعم، إن هذا الدرس القرآني هو الذي وقانا من هذا التيار الجارف الذي استولى على الصين ونصف أوروبا ودول البلقان وأقام سداً أمام هذا الهجوم. وهكذا وُجد حل سليم أمام هذا الخطر الداهم.

إذن لا يمكن لمسلم أن يخرج عن الإسلام ويتنصر أو يتهود أو يكون بلشفيًا... لأن النصراني إذا أسلم فإن حبه لعيسى عليه السلام يزداد أكثر. واليهودي كذلك يزداد حبه لموسى عليه السلام بعد دخوله للإسلام. ولكن المسلم إذا ارتد وحل ريقته من سلسلة الرسول محمد ﷺ وتخلّى عن الدين الحنيف فلا يمكن له أن يدخل أي دين آخر بل يكون إرهابياً. ولا يبقى في روحه أي نوع من الكمالات. بل يتفسخ وجدانه، ويكون بمثابة سم قاتل للحياة الاجتماعية.

لذا نشكر الله عز وجل أن قد بدأ بالانتشار درس من دروس القرآن المعجز لينقذ هذا العصر باسم رسائل النور بين ملة الترك والعرب باللغة التركية والعربية. وقد تحقق أنها مثلما أنقذت قبل ست عشرة سنة إيمان ستمائة ألف شخص. فإنها الآن قد تجاوز هذا العدد إلى الملايين من الناس. وكما أن رسائل النور أصبحت وسيلة لإنقاذ الإنسانية من الإرهاب - شيئاً ما- أصبحت وسيلة للتآخي والوحدة بين الأخوين الجليلين للإسلام وهما العرب والترك، وكذلك أصبحت وسيلة لنشر الأحكام الأساسية للقرآن الكريم حتى بتصديق أعدائها.

فمادام الكفر المطلق يقف حائلاً أمام القرآن الكريم في هذا العصر، وأن الكفر يضمّر في ثيابه في هذه الحياة الدنيا جهنماً معنوية تفوق جهنم نفسها، حيث إن الموت لا يمكن قتله، بل تشهد كل يوم ثلاثون ألفاً من الجنائز على استمرارية الموت، فإن هذا الموت هو بمثابة جهنم معنوية تفوق عذاب جهنم نفسها عشرات المرات لمن وقع في الكفر المطلق أو لمن يساند الكفر المطلق، نظراً لأنه يفكر في الموت أنه إعدام أبدي له ولأحبائه الذين مضوا والآتين معاً. لأن كل شخص كما يكون سعيداً بسعادة أحبائه، يتعذب بعذابهم. فالذي يكفر بوجود الله تمحى عنده جميع تلك السعادات، وتحل العذاب محلها. لذا هناك حل وحيد في هذا العصر ليزيل هذا الجحيم المعنوي من قلب الإنسان؛ ألا وهو القرآن الحكيم، وأجزاء رسائل النور التي هي المعجزة المعنوية للقرآن الكريم والتي كتبت وفق أفهام أبناء هذا العصر.

نحن الآن نشكر الله عز وجل، إذ قد شعر- إلى حد ما- أحد الأحزاب السياسية هذا الأمر فلم يقدّم بمنع هذه المؤلفات. ولم يمنع نشر رسائل النور التي تثبت بأن الحقائق الإيمانية تذيب أهل الإيمان جنة معنوية في هذه الدنيا. بل سمح على نشرها وتخلي عن مضايقة ناشريها.

إخواني! إن مرضي قد اشتد كثيراً، ولعلي أتوفى قريباً، أو أمتنع من المكالمة كلياً - كما كنت أمتنع أحياناً منها- لذا فعلى إختوتي في الآخرة أن يتجاوزوا عن الهجوم على أخطاء بعض المخطئين المساكين، وليعدّوها من قبيل "أهون الشرين". وليقوموا بالعمل الإيجابي دائماً. لأن العمل السلبي ليس من وظيفتنا. ولأن العمل السلبي في الداخل لا

يُغتفر. ومادام قسم من السياسيين لا يلحقون الضرر برسائل النور، بل يتسامحون قليلاً. لذا انظروا إليهم كأهون الشرين. ومن أجل التخلص من أعظم الشر فلا تمسوهم بضرر بل حاولوا أن تنفعوهم.

وإن الجهاد المعنوي في الداخل هو العمل ضد التخريبات المعنوية وإنه ليس مادياً قط.. وإنما يستوجب القيام بخدمات معنوية. لذا فكما لم نتدخل بأمور أهل السياسية، فلا يحق لأهل السياسة أن ينشغلوا بنا.

فمثلاً: لقد سامحت عن جميع حقوقي وعفوت عن حزب من الأحزاب السياسية رغم مقاساتي منه ألوفاً من المضايقات والسجون منذ ثلاثين سنة. فقد أصبحت جميع تلك المشتقات والمضايقات وسيلةً لخلاص خمسة وتسعين بالمائة من المساكين في أن يسقطوا في مضايقات ومظالم واعتراضات. حيث أسند الذنب إلى خمسة بالمائة من ذلك الحزب، بحكم الآية الكريمة: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ فلا يحق إذن لذلك الحزب الذي عادانا القيام بالشكوى منا بأي وجه كان.

حتى إن المدعي العام الذي طالب في إحدى المحاكم -من جراء الأوهام الخاطئة لبعض المخبرين والجواسيس- بإنزال الحكم علينا نحن السبعين متهماً، مستنداً إلى سوء فهمه وعدم تدقيقه، وبإسناد معنى خطأ لقسم من رسائل النور، فسعى بالحكم علينا بهذه الأخطاء التي كانت تنوف على ثمانين خطأ، كما أثبتنا أخطاء تلك الأخطاء، وكان أحد إخوانكم الذي تعرض أكثر من غيره لمثل تلك الهجمات الظالمة، مسجوناً وقد شاهد طفلة صغيرة من خلال نافذة السجن فسأل عنها فقيل له إنها ابنة ذلك المدعي العام، فلم يقم حتى بالدعاء على ذلك المدعي العام لأجل تلك الطفلة البريئة المسكينة. ولعل تلك المشتقات والاضطرابات التي ألقاها علينا المدعي العام انقلبت إلى رحمة، نظراً لأنها أصبحت وسيلة لنشر رسائل النور تلك المعجزة المعنوية.

إخواني! ربما أموت قريباً. فإن لهذا العصر مرضاً داهماً، وهو الأنانية وحب النفس، واشتهاء قضاء حياة جميلة في ظل مباحج وزخارف المدنية الجذابة وأمثالها من الأمراض المزمنة. إن أول درس من دروس رسائل النور الذي تلقيته من القرآن الكريم، هو التخلي عن الأنانية وحب النفس، حتى يتم إنقاذ الإيمان بالتقيد بالإخلاص الحقيقي. والله الحمد

والمنة، فقد برز في الميدان كثيرون ممن بلغوا ذلك الإخلاص الأعظم الحقيقي. فهناك الكثيرون ممن يضحون بأنانيتهم وبمنصبهم وجاههم في سبيل أصغر مسألة إيمانية. وحتى قد أخفت صوت لأحد طلاب النور وهو الضعيف المسكين من قبل الرحمة الإلهية عندما أصبح أعداؤه أصدقاء له وكثر الخطاب معه. ويتألم من أنظار من ينظر إليه بنظر تقدير واستحسان. إضافة إلى أنه يتضايق من المصافحات كأنه يتلقى الصفعات. فستل عنه "ما حالك؟ فما دام لك أصحاب يتجاوزون الملايين، فلماذا لا تحافظ على احترامهم لك وتوقيرهم إياك؟"

فأجاب قائلاً: مادام الإخلاص التام هو مسلكتنا. فبمقتضى الإخلاص التام لا بد من التضحية والفداء ليس بالأنانية فحسب، بل لو منحت سلطنة الدنيا لوجب تفضيل مسألة إيمانية واحدة باقية على تلك السلطنة. لذا فقد فضل نكتة دقيقة قرآنية في آية واحدة أو في حرف منها في الحرب، وفي الخط الأمامي بين قتابل مدافع الأعداء فأمر طالبه المسمى بـ"حبيب": أن "أخرج الدفتر" فأملني عليه تلك النكتة وهو يمتطي صهوة جواده. أي إنه لم يترك حرفاً واحداً ونكتة واحدة من القرآن الكريم مقابل قتابل الأعداء بل فضلها على إنقاذ حياته.

فسألنا ذلك الأخ: "من أين تلقيت هذا الإخلاص العجيب". فقال: من نقطتين: الأولى: إن في غزوة بدر التي هي من أعظم الغزوات الإسلامية، وضع قسم من المجاهدين أسلحتهم ووقفوا لأداء الصلاة جماعة، بينما القسم الآخر وقفوا مسلحين حذرين، ثم التحقوا بالصلاة كسبا لثواب الجماعة كما أمر به رسول الله ﷺ. فمادام هذه الرخصة موجودة في الحرب. ومادام ثواب الجماعة رغم كونه سنة قد فضل على أكبر حادثة في الدنيا لأجل رعاية تلك السنة النبوية فنحن نستلهم من الرسول الأعظم ﷺ هذه النكتة الصغيرة ونتبعها بروحنا وأنفسنا.

الثانية: إن الإمام علي رضي الله عنه قد طلب من الله سبحانه وتعالى في أماكن كثيرة من قصيدته "البدعية" ولا سيما في أواخرها حامياً يحميه من طروء الغفلة في خشوعه عند وقوفه في الصلاة. فطلب من الرب الجليل عفريئاً من الجن ليحميه مما يمكن أن يحدثه الأعداء من خلل في اطمئنانه وخشوعه في الصلاة.

إن أحاكم هذا المسكين الضعيف، الذي قضى صفوة عمره في الأنانية في هذا الزمان، قد تلقى هاتين النكتتين الصغيرتين من سيد الكونين الذي هو سبب خلق الأفلاك، ومن الذي هو أسد الإسلام. وفي زماننا هذا قد أعطى هذا المسكين الضعيف أهمية لأسرار القرآن ولم يعر سمعاً لحماية نفسه من الأعداء في الحرب، فبيّن نكتة واحدة فقط من حرف واحد من القرآن الكريم».

سعيد النورسي

الرحيل^(١)

في ١٩/٣/١٩٦٠ يوم السبت وصل الأستاذ إلى إسبارطة وكان الوقت بعد صلاة العصر وقبلها جاء الشرطي ليستفسر عنه قائلاً: إن الأستاذ قد غادر أميرداغ. قلنا لهم: لم يأت إلينا!

وفعلاً بعد مضي ساعة واحدة أتى الأستاذ بالسيارة، وما إن سمعنا تنبيه السيارة حتى نزلنا وفتحنا الكراج، ودخلت السيارة ثم قفلنا الأبواب.

كان الأستاذ متمدداً على ظهره في المقعد الخلفي للسيارة والمريض قد اشتد عليه. أخذناه بأحضاننا لنخرجه من السيارة. وعندما صعدنا السلم أردنا أن نحمله على ظهورنا، فلم يقبل. فأدخلنا -أنا والأخ طاهري- أيدينا تحت إبطيه حتى أوصلناه إلى الغرفة، وأجلسناه مكانه ثم تمدد في فراشه. كانت درجة حرارته عالية جداً، لذا لم نفارقه قط، حتى إننا كنا نصلي فرادى كي نتناوب البقاء معه للرعاية والسهر عليه.

كنا نحن الأربعة "أنا وزبير^(*) وحسني وطاهري" عند الأستاذ. وفي منتصف الليل كنت أنا مع الأخ زبير نتناوب الخفارة عنده. فيرخی أحدنا يده ويدلكها والآخر يدلك رجليه. فنظر الأستاذ إليّ قائلاً: سندهب.

قلت: نعم، سندهب يا أستاذي، ولكن إلى أين؟

قال: إلى "أورفة"... إلى "دياربكر"...

وكرر قوله: سندهب.

(١) سمعته من بيرام يوكسل، وانظر: Son Şahitler 3 ص ٨٣-٩٠.

ولما قلت: إلى أين يا أستاذي؟

قال: إلى "أورفة".

قال الأخ زبير: ربما يقول هذا تحت وطأة الحمى التي تنتابه!

وفي حوالي الساعة الثانية والنصف بعد منتصف الليل بدأ الأستاذ يكرر القول نفسه:

"سنذهب في الصباح الباكر إلى أورفة".

فكان يؤكد على أورفة.

ثم جاء الأخ "طاهري" و"حسني" لكي يستلما دورهما في الخفارة. وذهبنا أنا والأخ

زبير لتناول السحور حيث كنا في العشر الأواخر من رمضان المبارك..

ولقد قال الأستاذ أيضاً للأخ حسني: "تهيأوا للذهاب إلى أورفة". ولكن الأخ حسني

بيّن أن إطارات السيارة لا تصلح للسفر.

وكرر الأستاذ مرة أخرى: "سنذهب إلى أورفة مهما كلف الأمر، استأجروا سيارة ولو

بمائتي ليرة.. أبيع جبتي إذا اقتضى الأمر".

بدأنا بتهيئة السيارة للسفر، ورأيت أن إطارات السيارة فعلاً غير صالحة، ولا يمكننا

الحصول على إطارات جديدة في هذا الوقت... وعندما كنا منهمكين في تهيئة السيارة

جاء الأخ طاهري مسرعاً لمعاونتنا حيث أرسله الأستاذ إلينا، وأخبرنا أن الأستاذ يطلب

الإسراع في الأمر.

تهيأت السيارة، والأستاذ نفسه مستعد للسفر، وأنا كنت انتظر الإشارة من الأستاذ كي

أشاركهم في السفر، إذ كان الأخ زبير يقول منذ المساء: "ليت الأخ "بايرام" يكون معنا،

فيساعدنا في الطريق. فربما نجد صعوبة دونه".

لذا، لدى خروج الأستاذ من الباب سأل الأخ زبير الأخ طاهري: "هل سيأتي "بايرام"

أيضاً؟"

فقال الأستاذ: "نعم، إنه سيكون معنا".

فوضعنا الأستاذ في المقعد الخلفي من السيارة بعدما فرشنا له فراشاً عليه ليجد

الراحة. وجلست مع الأخ زبير في المقعد الأمامي مع السائق.

في ٢٠ / ٣ / ١٩٦٠ والساعة تشير إلى التاسعة صباحاً، كان ثمة شرطيان يراقباننا في الشارع، حيث اشتد هجوم المعارضة على الحكومة حتى أذيع في الراديو: "على بديع الزمان سعيد النورسي البقاء في إسبارطة أو أميرداغ".

وقبل أن تتحرك السيارة جاءت صاحبة البيت "السيدة فطنة" إلى سيارة الأستاذ، فودعها الأستاذ قائلاً: "أختي! أستودعكن الله نرجو دعاءكن، فأنا مريض جداً.."

كان الأستاذ يقول هذا بحزن شديد، حيث إن اللحظات هي لحظات فراق، حتى إن عيون صاحبة البيت طفحت بالدموع.. وقد قالت للأخ طاهري: "إنني -والله- وجلة من سفر الأستاذ في هذه المرة، إنه ذاهب لبحث عن مستقره (أي قبره)".

وقبل المغادرة أوصينا الأخ طاهري بعدم فتح الباب لأي طارق، وأن يذهب لينام. فنفذ الأخ ما أوصيناه.

فبدأ الشرطة يسألون من صاحبة البيت: "ألا تعلمين، متى ذهب الأستاذ وإلى أين؟" فكانت تجيبهم: "وهل أنا حارسة، كيف أدري، وأنتم لا تدرون؟.."

كانت الأمطار تهطل بغزارة أثناء مغادرتنا إسبارطة، وكنا نخاف كثيراً من كيد والي "قونيا" حيث كان يصرح للصحف: "سأجتث جذور طلاب النور وأقلعها من الأعماق".

لذا كنا نقرأ على طول الطريق آية الكرسي وباستمرار دفعاً لشره.

اشتد المطر نازلاً بغزارة أكثر عند وصولنا إلى "أغريد" بحيث لم يبق أحد من الشرطة في الشارع، فدخلوا جميعاً إلى بناية مركز الشرطة، حتى إننا مررنا من أمام المركز ولم يرنا أحد. وهكذا تركنا المدينة. ثم وضعنا الطين على لوحة السيارة لئلا يرانا أحد من المراقبين. وبعد أن تركنا "قره أغاج" أصبح الأستاذ في عافية، فنزل من السيارة وجدد الوضوء. وبعد أن قطعنا مسافة عدة كيلومترات من هناك وقفنا على شمال الطريق عند النبع، فصلى الأستاذ فوق صخرة هناك، ثم بدأنا السير، وقبل أن نصل "قونيا" أنهى الأستاذ أذكاره وأوراده، واستعدل في مكانه على المقعد الخلفي، ولكن ما إن وصلنا حدائق "مرام" في ضواحي قونيا حتى اشتد مرض الأستاذ مرة أخرى ولم يتمكن من النطق.

فدخلنا المدينة واشترينا فيها من دكان زيتوناً وجبناً استعداداً للإفطار، ودفع الأستاذ ثمنه وقال: "أبنائي أنا مريض جداً، كلوا أنتم بدلاً عني".

وبفضل الله فقد وسعنا عنايته الكريمة حيث لم يشاهدنا -والحمد لله- أحد في المدينة، بل ولا في المدن التي تلت قونيا.

وقبل وصولنا إلى "أركلي" جلس الأستاذ في مكانه ومد يديه ماسكاً أذني وأذن الأخ زبير من الخلف قائلاً لنا: "أبنائي، لا تخافوا أبداً، فقد قصمت رسائل النور ظهر الملحدين والشيوعيين، فرسائل النور غالبية دائماً بإذن الله".

كرر هذا القول عدة مرات، وكان صوته واطئاً جداً بحيث لا نكاد نسمعه، ثم قال: "هؤلاء لم يفهموني، هؤلاء لم يفهموني، هؤلاء أرادوا أن يلوثوني بالسياسة".

ثم نزلنا من السيارة لأداء صلاة العصر. ولكن الأستاذ ظل داخل السيارة وصلى هناك. وعندما حان وقت المغرب وصلنا "أولو قشلة" فقال الأستاذ: "هل لنا بشيء من الأكل؟"

فنزلنا -أنا والأخ زبير- واشترينا من المطعم قليلاً من الرز، وأردنا أن نهئى الطعام، ولكن الموقد الذي نحمله ما كان يصلح لهذا لغرض، فأخذنا موقد حارس سكة الحديد هناك.. كان الجو بارداً جداً، فتوسلت بالحارس ليعيرنا موقده وقلت له: إن معنا شيئاً مريضاً وإن موقدنا معطوب. فرضي الحارس.

بدأنا نحضر الطعام، ظل الأخ زبير مع الأستاذ داخل السيارة. وضعنا قليلاً جداً من الزبدة والبيض مع شيء من اللبن، فأخذ الأستاذ ملعقة منه ليضعه في فمه ولكنه لم يستطع الأكل، لانسداد بلعومه من شدة المرض.

مررنا من "أطنه" ليلاً ثم من "جيجان"، وصلينا العشاء في ضواحيها. ثم استرخى الأخ حسني لينام ساعة حيث كان يقود السيارة باستمرار. وعند السحور وصلنا "العثمانية" ودخلناها للتزود بالوقود، ولتناول السحور، إلا أن الأستاذ لم يذق شيئاً قط. ثم أقمنا صلاة الفجر قرب "ألما بناري" والأستاذ لم يغادر السيارة. كانوا يطلقون على هذا الجبل سابقاً "كاوورداعي" (أي جبل الكفر) والآن يطلقون عليه "نور داغي" (أي جبل النور).

وعند انبلاج الصباح وصلنا "غازي عنتاب" فاشتريت من المطعم شيئاً من الحساء وسألت عن الطريق إلى "نزيب"، حيث كانت الثلوج والأمطار تتساقط بشدة. وكان الطريق

محفوظاً بالمخاطر فترى السيارات عاطلة على جانبي الطريق، أما سيارتنا -والفضل لله- فكانت تسبق الريح ولم تتعطل لا في إطاراتها ولا في محركها، والحمد لله.

وعندما وصلنا إلى أورفة كانت الساعة تشير إلى الحادية عشرة وكان الأخ حسني على معرفة جيدة بشوارع أورفة.. دوننا من مسجد "قاضي أوغلو" الذي كان الأخ "عبد الله يَكنْ" موجوداً فيه، فأوقفنا السيارة قرب المسجد، وأسرع الأخ زبير إلى المسجد لإبلاغ الأخ عبد الله بقدوم الأستاذ، وعندها قال الأستاذ: "لنسرع بالذهاب فلا متسع لنا للانتظار". جاء الأخ زبير ومعه الأخ عبد الله مسرعاً إلى السيارة، فطلبنا من الأخ عبد الله أن يدلنا على فندق نظيف جداً، فدلنا على فندق "إيبك بالاس".

حملنا الأستاذ معاً وصعدنا به إلى الطابق الثالث حيث الغرفة رقم (٢٧) ووضعناه على فراشه ليرتاح قليلاً من عناء هذا السفر الطويل.

أما أهالي أورفة فقد كانوا منهمكين بتلاوة القرآن الكريم وختمه، نظراً لأننا كنا في شهر رمضان المبارك. وما إن سمعوا بقدوم الأستاذ إلى مدينتهم حتى هرعوا إلى الفندق وعاتبنا الكثيرون من عدم إخبارنا لهم مسبقاً بمجيء الأستاذ ليستقبلوه...

بدأ الناس يتقاطرون من كل مكان لزيارة الأستاذ. كان الأخ زبير جالساً على باب الغرفة، يسمح لهم بالدخول واحداً واحداً، أما أنا فقد كنت أمسك بيد الأستاذ وهم يقبلونها، والأستاذ يقبل رؤوسهم، وما كان الأستاذ يرغب بمغادرتهم بينما كنت أقول لهم أرجو أن تخرجوا من الغرفة ليتسنى لغيركم المجيء إلى الأستاذ، فكانوا يخاطبوني: "ألا ترى أن الأستاذ لا يرغب في ذلك".

لقد كنا فعلاً في حيرة من هذا الموقف من الأستاذ، حيث لم نكن قد رأينا مثله من قبل، فما كان الأستاذ يسمح لأحد بالبقاء عنده سواء أكان في إسبارطة أم في أميرداغ، حتى إننا عندما كنا في إسبارطة ومرض الأستاذ، فقلت له: "يا أستاذي هل أبلغ الإخوان بمرضك؟" قال: "لا، لا يأتي أحد إليّ دونكم".

بينما هنا في هذه المدينة، لم يكن يردّ أحداً، بل كان يضمهم إلى صدره، فقد أتى لزيارته أهالي المدينة كلهم، ومن التجار كافة، ولم يردّ الأستاذ أحداً منهم. بل كان يتحمل محتسباً ولم يسترح بل لم يذق طعم النوم. وكذلك نحن لم نجد النوم إلى عيوننا سيلاً.

استلمت دوري من الأخ زبير فجلست أمام الباب، وجاء في الحال شرطيان اثنان، قال أحدهما: "تهيؤوا للذهاب! أين السائق؟" أجبتهم: "الأستاذ مريض جداً".

ثم جاء أحد عشر شرطياً وقالوا: "تهيؤوا حالا! ستذهبون إلى إسبارطة في الحال". قلت لهم: "سأبلغ الأستاذ بالأمر".

دخلت على الأستاذ وأخبرته بالأمر، فسمح لهم بالدخول إليه، فقالوا: "إن رجوعكم إلى إسبارطة أمر صادر من وزارة الداخلية".

قال لهم الأستاذ: "يا للعجب! لقد أتيت هنا لكي أموت فيه، وربما سأموت، وها أنتم ترون حالي، دافعوا عني".

قال أحدهم: "نحن تحت أوامر السلطة، ماذا نعمل؟"

ثم جاءوا بالأخ حسني مع سيارته أمام الفندق، ليأخذ الأستاذ، وبدأ الناس بالتجمهر أمام الفندق. وصرخ صاحب الفندق من أعلى السلم على الشرطي: "إنه ضيفي. كيف يجوز لكم أن تأخذوه مني؟"

كان الناس في هياج شديد، حتى أخذوا يهتفون قائلين: "كيف يؤخذ ضيف كريم مثل الأستاذ وهو على فراش الموت".

أصبح الناس في حالة لا تسمح للشرطة بالصعود إلى الفندق، وبدؤوا يرجون من السائق أن يبعد السيارة من باب الفندق، ففعل، وعندها هداً الناس قليلاً وبدؤوا بزيارة الأستاذ مرة أخرى. فجاء موظفو الدولة والشرطة والعسكريون من جنود وضباط وأعضاء الأحزاب.. كلهم لزيارة الأستاذ.

ثم بدأ إصرار الشرطة على مقابلة الأستاذ وإبلاغه بأن الأمر صادر من الجهات العليا وأن علينا الخروج من أورفة حالا. وقالوا: "إن كنتم لا تغادرون المدينة بسيارتكم فسنأخذكم بسيارة إسعاف".

فأجبناهم: "إن أستاذنا مريض، وإن مرضه شديد جداً، لا يستطيع أن يتحمل قطع مسافة يوم كامل في السفر مرة أخرى. فضلاً عن أننا لا ن تدخل في أموره، وبخاصة وهو في هذه الحالة التي هي أشبه ما تكون بالموت".

قال أحدهم: "إن الأمر قطعي لا مرد له، فهو أمر وزاري، فكما جاء أستاذكم إلى هذه المدينة سيرجع كذلك. اخرجوا من أورفة حالا".

قلنا: "نحن لا نتدخل في أمور الأستاذ، تعالوا قابلوه أنتم بأنفسكم واعرضوا عليه مطالبكم، فإن قال لنا: نذهب، فنحن ذاهبون، لأننا لا نرد قوله أبداً، ولا يمكن أن نبليغه ما تقولونه".

فاستشاطوا غضباً وقالوا: ما هذا؟ ألا تقدرون أن تقولوا له مثل هذا الشيء البسيط؟

- نعم، نحن لا نقول له شيئاً، وكل ما يقوله ننفذه حرفياً.

- ونحن أيضاً مرتبطون بالأوامر الرسمية، فيجب أن تتركوا أورفة في مدة أقصاها ساعتان، وترجعوا إلى إسبارطة.

وعندما سمع الناس بقضية إخراج الأستاذ من أورفة احتشد قرابة ستة آلاف شخص أمام الفندق، وعندها ذهبنا إلى المستشفى لنخبر رئيس الصحة بحالة الأستاذ الصحية وأنه لا يستطيع السفر، وطلبنا منه إجراء الفحص على الأستاذ بنفسه.

أجرى الطبيب الفحص ثم التفت إلينا: "كيف تجرأتم على جلب الأستاذ إلى هنا، فدرجة حرارته عالية، وهو في حالة لا يمكن تحريكه مطلقاً. تعالوا معي لأزودكم بتقرير لجنة الأطباء بأنه لا يمكن أن يحرك من مكانه.."

نفدت طاقتي كلياً بعد صلاة المغرب من كثرة الوقوف والسهر والتعب، فقلت للأخ زبير: "إنني متعب جداً، فلقد أنهكتني الوقوف".

قال: "اذهب ونم في الغرفة".

فذهبت ونمت حوالي ساعتين. ثم جاء الأخ زبير إلى الغرفة وقال: "أخي إنني قد نفذ صبري، لم أغمض عيني هذا الأسبوع قط.. تعال لتتناوب.."

صلينا العشاء، ثم نام الأخ زبير. بقيت أنا والأخ حسني عند الأستاذ.

ثم قال الأخ حسني: "إن رجلي بدأنا تؤلماني من الوقوف والسهر، أريد أن أرتاح قليلاً".

قلت: "إنني مرتاح الآن، اذهب أنت أيضاً للنوم".

بقيت وحدي عند الأستاذ. وكان الأستاذ قد طلب منذ الصباح الباكر قطعة ثلج، لما

كان يشعر به من شدة الحرارة، فبحثنا عن الثلج ولم نحصل عليه. وعندما حلّ الليل جاء بعض الأصدقاء وقد حصلوا على الثلج. فقلت: "أستاذي لقد حصلوا على قطع من الثلج!" فأشار بالرفض.

- أستاذي هل أحضر الشاي؟
فأشار بالرفض.

وعندما أشارت الساعة إلى الثانية والنصف ليلاً بدأت شفتنا الأستاذ بالجفاف، وكنت أبللهما بمنديل. ثم كلما كنت أريد أن أغطيه يرفض، واستمر هكذا لفترة قصيرة.. أسدلت على المصباح شيئاً ليخفت ضوءه، لئلا يقلق ضوءه راحة الأستاذ..

بدأت أرخي ساعديه فضممني إليه، ثم وضع يده على صدره، واستسلم للنوم.. فأشعلت المدفأة، وحيث كنت أظنه نائماً. انتظرت أن يصحو على السحور، فكنت أقول في نفسي: سوف يأتي الإخوة الآخرون ونتناول السحور معاً. فوا سذاجته! لم أكن أعلم أن الأستاذ قد فارقتنا، وأنه قد انتقل إلى عالم الخلود، وأغمض عينه عن هذه الدنيا الفانية.

لم أكن قد رأيت سابقاً مثل هذه الحالة! فأني لي أن أعلم!
مضى وقت السحور كثيراً، وجاء الأخ حسني مع الأخ عبد الله وقالوا: "لقد نمنا كثيراً أطلنا فيه".

قلت: "سأذهب إلى الغرفة المجاورة لأصلي الفجر، فلا تحركوا ساكناً لأن الأستاذ نائم". ذهبت إلى الغرفة، صليت الفجر، قرأت الأذكار والأوراد اليومية، مع جزء من القرآن الكريم. وما إن أردت أن أطبق جفني لأنام حتى جاء الإخوة:

- يا أخانا، إن الأستاذ لا يحرك ساكناً.

- الأستاذ نائم فلا توقظوه.

ثم جاؤوا مرة أخرى وقالوا: "إن الأستاذ لا يتحرك أبداً.."

ذهبنا معاً إلى غرفة الأستاذ. جلس الأخ زبير بجانب رأسه ونحن الأربعة ننظر إليه، وليس للأستاذ أية علامة للحركة. ولكن درجة حرارته اعتيادية! فاضطربنا كثيراً. وقال الأخ زبير: "هذه الحالات تتكرر كثيراً لدى الأستاذ".

فخيم علينا الحزن، وعندها قال الأخ زبير: "هناك شخص يعرف مثل هذه القضايا

اسمه "عمر أفندي الواعظ".

وحالما أتى الرجل ورأى وضع الأستاذ قال: "إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ" إخواني! إن الأستاذ قد مات".

لم أكن أصدق عيني بوفاة الأستاذ قطعاً. إذ عندما كنا في سجن "أفيون" سنة ١٩٤٩ سمموا الأستاذ، فاحمر لسانه، فكنا نبكي بلا توقف على حاله، وعندها قال الأخ "أحمد فيضي" رحمه الله: "لماذا تبكون يا أطفال! إن حياة الأستاذ طويلة!".

وهنا أيضاً تذكرت قول الأخ أحمد فيضي مسلماً نفسي: ترى هل إن عمر الأستاذ يطول؟ هرع الإخوان ليبعثوا بالخبر إلى ولايات مختلفة من أرجاء البلاد.

سجيننا الأستاذ بنسبيج قطني رقيق. وبعد هنيهة جاء صاحب الفندق، ولما نظر إلى الأستاذ علم أنه قد توفي، وأخذ يضرب على فخذه ويصرخ.

وعلى إثره جاء مدير الأمن واستفسر عن اضطراب صاحب الفندق. فأجابه:

- إن بديع الزمان قد مات.

- هل حقاً إنه مات!

- نعم!

فانسحب الشرطة كلهم من أمام الفندق، وجاء الطبيب الخاص ليتأكد من حالة الوفاة وقال: الله.. الله.. إن درجة حرارته مرتفعة جداً، هل لديكم مرآة؟

فوضع المرأة على فم الأستاذ، وتأكد من عدم تنفسه وانقطاعه كلياً، ثم قال: "نعم، إنه ميت! ولكن لا تشبه حالته حالة وفاة.. إنني أشك فيه، ولا أرى دفنه في الحال".

ثم كتب تقريره للمسؤولين.

ثم جاء قاضي التركات، وبدأ يثبت ما ورثه الأستاذ فكان:

ساعة، وسجادة، ولفاف الرأس، وجبة. فأعطي كلها لأخيه عبد المجيد.

بدأت ألوف من أهالي أورفة يحتشدون أمام باب الفندق، وأخبروا الولايات الأخرى كلها بهذا النبأ الفاجع.

أخذ نعش الأستاذ من الفندق من بعد صلاة الظهر إلى غسله في "دركاه" ووصلنا إليه بعد ساعتين أو أكثر حيث الازدحام كان شديداً جداً فقد أغلق أهالي أورفة محلاتهم. ولما

ذهبوا بنعش الأستاذ أغمي علي وعلى الأخ حسني.
فخاطبنا الأخ عبد الله: "هل أنتم أطفال.. أفيقوا!"
ولدى وصولنا إلى "دركاه" ليتم غسل الأستاذ، كان الازدحام لا يطاق حتى تعذر
الدخول إلى هناك، ومع ذلك دخلنا واستطعنا أن نغسل الأستاذ هناك، وقام بغسله "ملا
حميد أفندي" وهو من علماء أورفة المعروفين.^(١)

وساعدنا في الغسل الإخوان "زير وحسني وعبد الله وخلوصي".
وبعدما تم الغسل أخذنا نعشه الطاهر إلى "أولو جامع" كي نختم على روحه القرآن
الكريم. ظلت الجنازة في تلك الليلة في الجامع، وما إن تنفس الصبح حتى أصبح الازدحام
في أورفة شديداً جداً، حيث أتى الناس من كل أنحاء تركيا. وقرأ الجميع الختمة القرآنية
حتى الصباح وأهدوا ثوابها إلى روح الأستاذ.
ولشدة الازدحام فقد قدرنا أنه لن يتيسر الدفن في هذا اليوم... فاستدعانا الوالي،
وبدأ يرجو منا ويلح بأن يدفن الأستاذ اليوم بعد صلاة العصر بدلا من يوم الجمعة لأن
الازدحام أصبح لا يطاق في المدينة.

وفي الحال أعلن عن أن صلاة الجنازة ستقام يوم الخميس بعد صلاة العصر.
حضر الوالي نفسه ورئيس البلدية وأقاموا صلاة الجنازة.
ولقد اندهشنا من ظاهرة عجيبة وهي أنه: عندما كان الأستاذ يُغسل كانت الأمطار تتساقط
رذاذاً وشاهدنا عندها طيوراً ذات أشكال غريبة وألوان زاهية، وبأعداد هائلة جداً.
وهكذا دفن الأستاذ يوم الخميس بعد صلاة العصر. ولم يستطع كثير من الناس حضور
تشيع الجنازة إلا من جاء بسيارات خصوصية. فلم يلحق من كانوا في أميرداغ، ومنهم
الأخ جيلان، فلقد حزن هذا الأخ حزناً عميقاً على تأخره عن الجنازة وقال: "لقد خدمت
الأستاذ سنوات طويلاً واليوم يا للأسف لم أحضر وفاته!"

(١) يروي "ملا حميد أفندي" هذه الخاطرة: "كنت معتكفاً في جامع "قاضي أوغلو" ورأيت في الرؤيا أن الأستاذ
يقول لي: "عليك بحضور جنازتي، والقيام بغسلي، لأنني ساموت".
قلت له: "إنه لا يجوز للمعتكف الخروج من الاعتكاف يا أستاذي! فماذا أعمل؟".
قال: "انظر إلى صحيفة كذا من "ملتقى الأبحر" فهناك ترى الجواز".
ولما استيقظت من النوم، أخذت الكتاب المذكور بسرعة وأنا بعد تحت تأثير الرؤيا، وفتحت الصفحة نفسها
وإذا ما قاله الأستاذ نفسه. وعلى هذا فقد نلت شرف غسل جنازته". (ش) ٤٥١.

الخطرة الأخيرة

يقول عبد المجيد شقيق الأستاذ: بعد مرور خمسة أشهر على وفاة شقيقي استُدعيت إلى ديوان الوالي في "قونيا". شاهدت هناك ثلاثة جنرالات معه،^(١) خاطبني أحدهم: لا يخفى عليكم أننا نعيش ظروفاً حرجة، فالزوار من الولايات إلى قبر شقيقكم يزدادون يوماً بعد يوم، فنحن نريد أن ننقل رفاته -بمعاونتكم- إلى أواسط الأناضول. فنرجو توقيع هذا الطلب. ومدوا إليّ بورقة طلب باسمي، قلت بعد قراءتها: ولكنني لم أطلب هذا... أرجوكم دعوه ليرتاح في الأقل في قبره! أصرروا على موقفهم وقالوا: "لامنص من الأمر". توجهنا -بعد توقيع الطلب- إلى المطار فأقلتنا طائرة عسكرية إلى أورفة، وفي الثالثة ليلاً ذهبنا إلى المقبرة... كان هناك تابوتان في صحن الجامع مع بعض الجنود. اقترب الطبيب العسكري مني قائلاً: "لا تقلق سننقل الأستاذ إلى الأناضول". وعلى إثر هذا الكلام أجهشت بالبكاء فلم أتمالك نفسي. أمر الطبيب الجنود بهدم القبر. فكانوا يترددون ويخشون سخط الله عليهم.

فقال الطبيب: نحن مأمورون وليس أمامنا سوى التنفيذ، فقاموا بهدم القبر وإخراج التابوت منه. وعندما فتحوا التابوت. قلت في نفسي: لا بد أن عظام أخي الحبيب قد أصبحت رماداً. ولكن ما إن لمست الكفن حتى خيل لي أنه قد توفي أمس. كان الكفن سليماً إلا أنه مصفر قليلاً من جهة الرأس. وكانت هناك بقعة واحدة على شكل قطرة ماء. وعندما كشف الطبيب عن وجهه، نظرت إليه وإذا عليه شبه ابتسامة. احتضنا ذلك الأستاذ العظيم ووضعناه في التابوت الآخر. وأخذناه إلى المطار. كانت الشوارع خالية من الأهلين ومليئة بالجنود المدججين بالسلاح، حيث أعلن منع التجول في المدينة. جلست بجانب التابوت في الطائرة والحزن والأسى يملآن قلبي، والدموع تملأ عيني. اتجهت الطائرة إلى أفيون، ومنها نقل التابوت بسيارة إسعاف إلى إسبارطة حيث دفن

(١) حيث وقع انقلاب عسكري في ١٩٦٠/٥/٢٧ أطاح بالحزب الديمقراطي وسبق أعضاء الحكومة إلى المحكمة التي أطلق عليها اسم "محكمة الدستور" وانتهت هذه المحكمة بتنفيذ حكم الإعدام برئيس الوزراء "عدنان مندرس" وعلى اثنين من وزرائه ويمدد مختلفة للوزراء والمسؤولين السابقين في حكومة الحزب الديمقراطي. كما أبدوا عداوة لجميع التيارات والحركات الإسلامية في تركيا ومنها حركة "طلاب النور". وكان حقد أعداء الإسلام وغيظهم على الأستاذ سعيد النورسي لم ينته حتى بعد وفاته فأرادوا الانتقام منه وهو في القبر، فقاموا بنقل رفاته هذا العالم الجليل إلى جهة مجهولة.

في مكان لا يزال مجهولاً^(١). رحمه الله رحمة واسعة وأسكنه فسيح جناته.

وصية

لقد كان منذ القدم دأب أستاذنا ألا يتذلل أمام أعظم الرؤساء، حفاظاً على عزة العلم، بل ما كان يقبل هدايا أحد من الناس دون مقابل. والآن وقد أصبح يرفض الهدايا - التي لا ضير من قبولها لدى أهل العلم - بحجة المرض الذي ضعفه أشدّ الضعف، بل يرفض حتى ما تقدّمه له نحن الذين نقوم بخدمته ولو كان شيئاً صغيراً، فتراه يتمرض إن تناوله. فاقنعنا أنه أخطر إلى قلبه منعه من إخلال قاعدته التي اتخذها طوال حياته، وهي ألا تكون رسائل النور أداة لأي شيء كان حفاظاً على الإخلاص التام. ونحن الآن في موسم عيد لرسائل النور حيث تنتشر في الأرجاء كافة. لكننا نجد أن أستاذنا يتصجر من المحاورة ويمتعض من النظر إليه والمصافحة حتى من أخص طلابه وإخوانه.

وشاهدناه يقول في هذه الأيام المباركة للعيد السعيد: "اجعلوا قبري في مكان مخفي غاية الإخفاء، ويلزم ألا يعرف موضعه أحدٌ عدا واحد أو اثنان من طلابي فقط. هذه وصيتي إليكم؛ فالحقيقة التي تمنعني عن المحاورة والمسامرة في الدنيا تمنعني بلاشك بعد وفاتي. ونحن بدورنا سألنا أستاذنا: إن الذي يزور القبر يقرأ سورة الفاتحة ويُثاب عليها. فما الحكمة من منعكم زيارة قبركم؟ فأجاب: إن الغفلة الناشئة من الأنانية وحب الذات في هذا العصر العصيب تدفع الناس إلى أن يولوا اهتمامهم إلى مقام الميت وشهرته الدنيوية في أثناء زيارتهم القبور، مثلما عمل الفراعنة في الزمن الغابر على تحنيط موتاهم ونصب التماثيل لهم ونشر صورهم رغبة في توجيه الأنظار إليهم، فتوجهت الأنظار إلى المعنى الاسمي - أي لذات الشخص - دون المعنى الحرفي - أي لغيره.. وهكذا فإن قسماً من أهل الدنيا في الوقت الحاضر يولون توجههم إلى شخص الميت نفسه وإلى مقامه ومنزلته الدنيوية بدلاً من الزيارة المشروعة لكسب رضا الله ونيل الثواب الأخروي كما كانت في السابق.

لذا أوصي بعدم إعلام موضع قبري حفاظاً على سر الإخلاص ولئلا أجرح الإخلاص الذي في رسائل النور. فأينما كان الشخص سواء في الشرق أو الغرب وأياً كان فإن ما يقرأه من "الفاتحة" تبلغ إلى تلك الروح^(٢).

(١) (ش) ٤٣٧.

(٢) ملحق أمير داغ ٢.

ومما يلفت النظر أن ما كتبه الأستاذ النورسي في مستهل مؤلفه "لمعات" اللوامع المطبوع في سنة ١٩٢١ فيه إشارة إلى سنة وفاته وتهدم قبره. إلا أن أحداً لم ينتبه إليها إلا بعد وفاته. وهذا أمر جارٍ لدى كثير من العلماء العاملين والأولياء الصالحين وليس علماً بالغيب كما لا يخفى إذ هو إعلام من الله لهم بإشارات خفية ورموز دقيقة. ندرج ذلك في أدناه:

الداعي^(١)

قبري المهتمّ يضم تسعاً وسبعين جثة^(٢) لسعيد ذي الآثام والآلام
وقد غدا شاهد القبر تمام الثمانين
والكل يبكي معاً لضياح الإسلام
فيئن قبري المليء بالأموات مع شاهده
وغداً أنطلق مسرعاً إلى عقباي
وأنا على يقين أن مستقبل آسيا بأرضها وسمائها
سيستسلم ليد الإسلام البيضاء
إذ يمينه يُمن الإيمان
يمنح الطمأنينة والأمان للأنام.^(٣)

* * *

(١) هذه القطعة توقيع المؤلف.

(٢) يعني: لما كان الجسد يتجدد في كل سنة مرتين، فإن سعيدين قد ماتا في كل سنة، فضلاً عن أن سعيداً في هذه السنة في السنة التاسعة والسبعين، وإن سعيداً سيعيش إلى هذا التاريخ، حيث يموت في كل سنة سعيد. (أضاف المؤلف هذا الهامش سنة ١٩٥١. ذكره صونغور).
ومما يوضح هذا المعنى ما ذكره الأستاذ في مؤلفه "إشارات" بالنص العربي: أنا تولدت الآن متلخصاً من ثمانين "سعيداً" تمخضوا في أربعين سنة بقيامات متسلسلة واستنساخات متسلسلة. فهذا "السعيد" حي ناطق (وتسع وسبعون) ميتون. لو بالانجماد تماسك ماء الزمان وتمثل أولئك "السعيدون" وتراءوا لما تعارفوا (لشدة التخالف فيما بينهم)... تدرجت عليهم في الأطوار فتفرق مني ما زان وأخذت منهم ما شان. فكما أن أنا الآن هو أنا في هاتيك المراحل، كذلك أنا فيما يأتي بموتي من المنازل. إلا أنه في كل سنة بمهاجرة اثنتين لساكنتي تلك البلاد يجدد "أنا" لباسه فيلبس "السعيد" الجديد ويخلع العتيق.

(٣) الكلمات، اللوامع.